العنوان: أسلوب الحقيقة و قيمته في التصوير : عرض و تقويم

المصدر: مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة

المؤلف الرئيسي: أبو سالم، أحمد فريد

المجلد/العدد: ع30, ج2

محكمة: نعم

التاريخ الميلادي: 2011

الناشر: جامعة الأزهر - كلية اللغة العربية بالمنصورة

الصفحات: 185 - 284

رقم MD: 623125

نوع المحتوى: بحوث ومقالات

قواعد المعلومات: AraBase

مواضيع: اللغة العربية ، البلاغة العربية ، المجاز اللغوي ، البلاغيون العرب ، الأسلوب الأدبي

رابط: https://search.mandumah.com/Record/623125

أسلوب الحقيقة

وقيمته في التصوير

عرض وتقويم

إعداد

الدكتور / أحمد فريد أبو سالم

مدرس البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بالمنصورة

فرع جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله الأطهار، وصحبه الأخيار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد

فإن هذا البحث يتناول قضية ذاع صيتها في التراث البلاغي عند القدماء، وتلقفتها ألسنة كثير من المعاصرين دون تحقيق أو تدقيق، وجاء تداولها على أنها قضية مسلم بها لا تقبل الجدال أو النقاش، تلكم القضية هي:"أن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة"، وذلك مما يعني التقليل من شأن الحقيقة، وانتقاص دورها ،وذلك بالنسبة إلى دور المجاز وقيمته.

ومن ثم جاء البحث بعنوان " **أسلوب الحقيقة وقيمته في التصوير دراسة وتقويم** " ليعالج هذه القضية في ضوء أقوال العلماء عنها؛ حيث يعرضها ويناقشها في حياد وموضوعية.

هذا، وقد اقتضت طبيعة معالجة هذا الموضوع أن يأتي في: مقدمة، ومبحثين، وخاتمة.

أما المقدمة: ففيها سبب اختيار البحث، وخطة السير فيه بالتفصيل.

وأما المبحث الأول :فهو بعنوان:" الجانب النظري"، ويتناول النقاط الآتية:

الأولى: الكشف عن أهمية أسلوب الحقيقة، ودوره في التصوير.

الثانية:الحقيقة والمجاز في الكلام، وبداية الحاجة إليهما .

الثالثة:موقف العلماء من ورود الحقيقة والمجاز في الكلام.

الرابعة:أيهما الأصل، الحقيقة أم المجاز؟ مع ذكر بعض الأسباب التي قد يعدل من أجلها عن الحقيقة إلى المجاز.

الخامسة:الحقيقة عند البلاغيين، وتعرضهم لها من ناحية تعريفها في اللغة، واشتقاقها، ونوع التاء فيها، ثم تعريفها في اصطلاحهم، مع ذكر أقسامها .

السادسة: المقارنة بين القيمة الجمالية لأسلوبي الحقيقة والمجاز، وفيها تأصيل لمقولة:"أن المجاز أبلغ من الحقيقة" ، والمقصود من الأبلغية، والرد على تلك المقولة، بأن العبرة ليست مرتبطة بنوع الأسلوب، بقدر ارتباطها بالمقام والسياق، فكل منهما يعد أبلغ من غيره إذا اقتضاه المقام ، ونادى عليه السياق، ومن ثم نقول:إن الحقيقة في موقعها أبلغ وأجمل من المجاز في غير موقعه .

وأما المبحث الثاني: فجاء بعنوان:"الجانب التطبيقي"، وتناول شواهد متنوعة جاء التصوير فيها بأسلوب الحقيقة،وهي كما يلي :

أولاً: شواهد من القرآن الكريم.

ثانيا: شواهد من الحديث النبوي الشريف .

ثالثا: شواهد من الشعر العربي .

وأما الخاتمة، فكانت تسجيلاً لأهم النتائج التي توصل إليها البحث .

وبعد، فهذه محاولة لمعالجة قضية بلاغية، وبيان الحق فيها، فإن كنت قد وفقت في تناولها فذلك فضل من الله ونعمة، وإن كانت الأخرى فحسبي أني بذلت جهدي.

والله تعالى نسأل أن يرينا الحق ويرزقنا اتباعه، وأن يلهمنا التوفيق والسداد، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

والحمد لله رب العالمين.

الباحث

د. أحمد فريد أبو سالم

* * *

المبحث الأول

وهو بعنوان:" الجانب النظري"، ويتناول النقاط الآتية:

الأولى: الكشف عن أهمية أسلوب الحقيقة، ودوره في التصوير.

الثانية : الحقيقة والمجاز في الكلام، وبداية الحاجة إليهما .

الثالثة : موقف العلماء من ورود الحقيقة والمجاز في الكلام.

الرابعة : أيهما الأصل، الحقيقة أم المجاز ؟ مع ذكر بعض الأسباب التي قد يعدل من أجلها عن الحقيقة إلى المجاز.

الخامسة : الحقيقة عند البلاغيين.

السادسة : المقارنة بين القيمة الجمالية لأسلوبي الحقيقة والمجاز.

* * *

أسلوب الحقيقة وقيمته في التصوير

بادئ ذي بدء أقول: إن المقصود من حديثنا هنا حول مصطلح الحقيقة ، إنما هو خاص "بالحقيقة اللغوية "دون غيرها، وقد أطلقت المسمى هنا ولم أقيده باللغوية ؛ اتباعاً لمنهج الأكثرية من البلاغيين، إذ إنهم عندما يذكرون مصطلح " الحقيقة والمجاز" دون تقييد لا ينصرف الذهن إلا " للغويَيْن"، وهذا بخلاف ما يقابلهما وهما "الحقيقة والمجاز العقليَين "، فقد اصطلحوا على وجوب تقييدهما بهذا القيد عند الحديث عنهما .ولذا فقد قال الخطيب: " وقد يقيدان . أي: الحقيقة والمجازباللغويَّين"[١] و"قد" تفيد التقليل، إذاً الأكثر هو عدم تقييدهما بذلك.وسوف نتناول في هذا المبحث عدة نقاط:

الأولى: الكشف عن أهمية أسلوب الحقيقة، ودوره في التصوير:

إن أسلوب الحقيقة هو أحد الأساليب البليغة التي يؤدى بها المعنى،ويعبر بها المتكلم عن أحاسيسه ومشاعره ،ولها دور كبير في تشكيل الصورة الفنية، وهي وقرينها المجاز يعدان باب أصيل من أبواب علم البيان التي ينبغي علي دارس البلاغة العربية أن يتعرف علي محتواهما، ويبحث عن أسرار جمالهما الفني،بل هناك من العلماء من جعلهما علم البيان كله؛ وذلك لفضلهما الكبير، ومكانتهما العظيمة بين أساليب البيان الأخرى، يقول ابن الأثير: مبيناً ذلك في كتابه المثل

---

(١) شروح التلخيص ٣/٤، ط: دار البيان العربي - بيروت . ط: الرابعة:١٤١٢هـ .١٩٩٢م، والإيضاح مع البغية٣ /٨٤ . تحقيق/ عبد المتعال الصعيدي، ط: مكتبة الآداب . القاهرة،ط: الرابعة .

السائر:" الفصل السابع في :الحقيقة والمجاز، وهذا الفصل مهم كبير من مهمات علم البيان، لا بل هو علم البيان بأجمعه"[(١)] .

ومع أهمية هذا الباب بقسمَيه معا. أعني: الحقيقة والمجاز. في التعبير عن الغرض ، وتشكيل الصور الفنية،إلا أننا وجدنا البلاغيين قد صبوا جهدهم على أحد القسمَين . وهو المجاز، دون الآخر . وهو الحقيقة . ،فأطالوا الوقوف أمام المجاز،فعرّفوه، ثم ذكروا أقسامه المتعددة، وتحدثوا عن بلاغة أساليبه،وإبراز قيمتها الفنية، وتناولوا كل ذلك بإفاضة بالغة، وعندما جاء حديثهم عن القسم الآخر. وهو الحقيقة . ،رأيناهم لم يتوقفوا أمامه كما توقفوا أمام المجاز ، بل جاء حديثهم عنها مختصرًا،فلم يتناولوها إلا من ناحية: تعريفها في اللغة والاصطلاح وبيان أصل اشتقاقها ودلالة التاء فيها،ثم ذكر أنواعها، والمقارنة بين بلاغتها وبلاغة المجاز.

إن عدم إطالة البلاغيين بالوقوف أمام أسلوب الحقيقة – لبيان مكانتها، وذكر شواهد لها من :القرآن الكريم، أو الحديث النبوي ،أو الأساليب الأدبية الرفيعة – أدى ذلك إلى فهم البعض بعدم أهميتها، وأنها ليس لها أثر يذكر في التعبير الفني، بل لم يقف الأمر عند هذا الحد ، حتى رأينا بعض العلماء المحدثين يهملونها ويغفلون الحديث عنها جملة وتفصيلا، فلم يشيروا إليها لا من قريب ولا من بعيد ، اللهم إلا إشارة عابرة، ومن هؤلاء صاحب كتاب "زهر الربيع" ، حيث إنه لم يذكر في

---

(١) المثل السائر لابن الأثير١/٧٤، تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد، طبع ونشر: المكتبة العصرية . بيروت، ط: ١٩٩٥م.

كتابه مصطلح الحقيقة ـ كغيره من العلماء ـ وهو يتحدث عن المجاز، وإنما قال :"باب المجاز، وأشار إلى أنه ينقسم إلى :عقلي ،وشرعي، وعرفي، ولغوي"، أما إشارته العابرة عنها فقد جاءت عندما نقل عبارة البلاغيين الذين قالوا فيها :"اتفق البلغاء على أن المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة والتصريح"[(١)] .

وأعتقد أن الذي أوصل أمر أسلوب الحقيقة عند الشيخ ـ رحمه الله ـ وعند غيره إلى هذا الحد، هو أن البلاغيين أنفسهم قد صرحوا بأن تعرضهم لهذا الأسلوب ، وتناولهم له لم يكن مقصودا لذاته، وإنما جاء اضطرارا لحديثهم عن القسم الآخر وهو:المجاز، يقول سعد الدين التفتازاني: مبينا ذلك" الحقيقة والمجاز هو المقصد الثاني من مقاصد علم البيان، والمقصود الأصلي إنما هو بحث المجاز، لكن قد جرت العادة بالبحث عن الحقيقة أيضاً ؛ لمَا كان بينهما من شبْه تقابل العدم والملكة؛ حيث اشتمل أسلوب الحقيقةَ على استعمال اللفظَ فيما وضع له، والمجاز على استعماله في غير ما وضع له، ولهذا قدّم تعريف الحقيقة؛ ولأن المجاز وإن لم يتوقف على أن يكون لـه حقيقة – كما هو المذهب الصحيح – لكن الدال على غير ما وضع له ، فرع الدال على ما وضع

---

(١) ، ط: ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٦م.ويمكن أن يُقال: إن الشيخ ـ رحمه الله ـ اكتفى بالمجاز عن الحقيقة؛ لأنه سار على رأي من يقول: إن تعريف المجاز يشير إلى تعريف الحقيقة؛ وذلك لاشتمال تعريفه على العدم وهو قولنا:" غير ما وضع له" ، واشتمال تعريف الحقيقة على الملكة وهو قولنا:"ما وضعت له"، وتصور العدم يلزم منه تصور الملكة. ينظر:عروس الأفراح ٢/٤ (ضمن شروح التلخيص) .

له في الجملة، فالتعرض للأصل مناسب[١]. ويقول بهاء الدين السبكي أيضا: "ثم إن الحقيقة لما كان المقصود إثبات غيرها، وإنما ذكرت استطرادا. لما تقدم. اقتصر على تعريف الغالب منها[٢].

إذاً فذكر البلاغيين لأسلوب الحقيقة –كما صرح التفتازاني وغيره– جاء عرضا وتبعا واستطرادا لدراستهم لأسلوب المجاز، ولم يكن مقصودًا لذاته، ولولا الحديث عن المجاز ما جاء ذكر للحقيقة ألبتة.

وإذا نظرنا إلى الأساليب البلاغية الأخرى، وبحثنا عن الدافع وراء ذكرها. كما هو الشأن مع أسلوب الحقيقة – لوجدنا أن منها ما كان الدافع وراء ذكره هو الدافع نفسه الذي من أجله كان أسلوب الحقيقة، ومع ذلك لم يفعلوا معه كما فعلوا معها، وكأنهم كما يُقال– إن صح التعبير. يكيلون بمكيالين.

انظر على سبيل المثال إلى كلامهم عن "أسلوب التشبيه"، فسوف تجد أن دراستهم له لم تكن مقصودة لذاتها، وإنما جاءت تبعا لدراستهم وتعرضهم لأسلوب الاستعارة؛ لأنها – عندهم – مبنية عليه، يقول الخطيب: مصرحا بذلك وهو يتحدث عن حصره لأبواب علم البيان " ثم اللفظ المراد به لازم ما وضع له، إن قامت قرينة على عدم إرادة ما وضع له: فمجاز، وإلا فهو: كناية، ثم المجاز منه: الاستعارة، وهي ما تبنى على: التشبيه، فيتعين التعرض له"[٣].

---

(١) المطول لسعد الدين التفتازاني ص٣٤٨، ط: مطبعة أحمد كامل، ط: ١٣٣٠هـ.
(٢) عروس الأفراح ٣/٤ (ضمن شروح التلخيص).
(٣) الإيضاح مع البغية ٣/٦.

فظاهر هذا الكلام أن دراسة البلاغيين لأسلوب التشبيه لم يكن لذاته، وإنما جاء اضطرارا لدراسة شيء آخر، ألا وهو: أسلوب الاستعارة.

إذاً فوضع التشبيه عند البلاغيين يكاد يكون - إذا لم يكن هو نفسه - كوضع الحقيقة عندهم ، كل منهما وسيلة للحديث عن شيء آخر، إلا أن معالجتهم للتشبيه وتناولهم له قد جاءت على العكس تماما من تناولهم للحقيقة ، وهذا مما لا يشك فيه أحد .

فقد أكثروا الكلام فيه، وأشبعوه بحثاً ،ولم يتركوا شاردة ولا واردة عنه إلا وتعرضوا لها، كما رفعوا شأنه ، وعظموا أمره ، حتى قال قائلهم عنه:"والتشبيهُ جار كثيرٌ في الكلام، أعني:كلام العرب، حتى لو قال قائل: هو أكثر كلامهم، لم يُبْعد" ، وقال أيضا:"والتشبيه كثير، وهو باب كأنه لا آخر له"[١]وقال ثان:"وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كل جيل ما يُستدل به على شرفه وفضله، وموقعه من البلاغة بكل لسان" [٢] .وقال ثالث:"هو الذي إذا مهرت فيه ملكت زمام التدرب في فنون السحر البياني" [٣] .وقال رابع:"فيه من النكت واللطائف البيانية

---

(١) الكامل للمبرد ٢/٩٩٦ ، ١٠٥٧ .تحقيق د/محمد أحمد الدالي ،ط:مؤسسة الرسالة بيروت ط:الثالثة:١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

(٢) الصناعتين لأبي هلال العسكري ص٢٤٩، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي البجاوي، ط: عيسى الحلبي، ط: ١٩٧١م.

(٣) مفتاح العلوم للسكاكي ص ٣٣١ .تحقيق/ نعيم زرزور ط: دار الكتب العلمية - بيروت. ط : الأولى : ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

ما لا يحصى ، وله مراتب مختلفة في الوضوح والخفاء"[١] .وقال خامس:"والتشبيه من أعلى أنواع البلاغة وأشرفها"(٢) . . .إلى آخر هذه الأقوال التي قيلت في حقه.

هذا هو أسلوب التشبيه - عند البلاغيين - ، والإفصاح عن شيء من منزلته ومكانته لديهم، والذي كان السبب والدافع وراء ذكره بين أساليب علم البيان عند هم -كما أشرنا آنفاً - أنه ذكر ليكون مقدمة ووسيلة لتناول أسلوب الاستعارة، ومع ذلك فقد أشادوا به أيما إشادة.

وبإنعام النظر فيما ذكره البلاغيون عن أسلوبي: التشبيه والحقيقة، نجد أنهم أوقعوا أنفسهم في تناقض واضح، هذا التناقض هو: أنهم عندما جاء حديثهم مباشرة عن أسلوب الحقيقة رأيناه مختصرا، وإن أردنا الدقة في التعبير أقول : إنه جاء مبتورا، فمروا عليها مرور الكرام ، ولم يطيلوا الوقوف أمامها .

وفي المقابل عندما جاء حديثهم عنها ضمنياً متمثلا ذلك في كلامهم عن أسلوب التشبيه وجدناه حديثا مطولا، يتناول كل ما يتعلق به، مبرزا قيمته وأثره في التعبير،وتجدر الإشارة هنا إلى أن التشبيه يقوم أساسا على الحقيقة .كما هو الرأي الراجح - في ذلك ، يقول . إمام البلاغة ورائدها - عبد القاهر الجرجاني: إن" كل متعاط لتشبيه صريح، لا يكون نقل اللفظ من شأنه ولا من مقتضى غرضه، فإذا قلت: "زيد كالأسد،

---

(١) حاشية السيد الشريف على المطول ص ٣١٠.

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي٣/١٤١ ، تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم. ط:مكتبة د. "التراث . القاهرة.

وهذا الخبر كالشمس في الشهرة، وله رأي كالسيف في المضاء"، لم يكن منك نقل للفظ عن موضوعه، ولو كان الأمر على خلاف ذلك، لوجب أن لا يكون في الدنيا تشبيه إلا وهو مجاز، وهذا محال؛ لأن التشبيه معنى من المعاني ، وله حروف وأسماء تدل عليه ، فإذا صُرِّح بذكر ما هو موضوع للدلالة عليه، كان الكلام "حقيقة" كالحكم في سائر المعاني، فاعرفه"١ .

واقتفى أثره في ذلك كثير من العلماء من أمثال : الزمخشري،والرازي، والسكاكي، والخطيب، وشراح التلخيص، وغيرهم ، يؤكد ذلك ابن القيم قائلا:" وذهب المحققون من متأخري علماء هذه الصناعة وحذاقها إلى أن التشبيه ليس من المجاز؛ لأنه معنى من المعاني، وله حروف وألفاظ تدل عليه وضعا"٢ .كما رجح هذا الرأي السيوطي أيضاً بقوله:"زعم قوم أن التشبيه مجاز، والصحيح أنه حقيقة. . .لأنه معنى من المعاني، وله ألفاظ تدل عليه وضعاً، فليس فيه نقل اللفظ عن موضوعه"٣ .

---

(١) أسرار البلاغة ص٢٤٠، تحقيق/ محمود محمد شاكر، نشر دار المدني ـ جدة، ط: المدني ـ القاهرة ـ ط: الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

(٢) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان لابن القيم الجوزية ص٨٢ ، ط: دار الكتب العلمية ـ بيروت. ط: الأولى:١٤٠٢هـ ـ١٩٨٢م. هذا، وهناك رأي للبعض في هذه المسألة وهو أن:التشبيه مجاز، يقول عنه ابن رشيق: في العمدة ١/ ٤٣٢ " وأما كون التشبيه داخلا تحت المجاز؛ فلأن المتشابهين في أكثر الأشياء إنما يتشابهان بالمقارنة على المسامحة والاصطلاح لا الحقيقة" .

(٣) الإتقان ٣/١٢٥ .وانظر أيضا: التصوير البياني د/ محمد أبو موسى ص١٧٨ .ط: مكتبة وهبة، ط: الثانية:١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

أرأيت هذا الإجحاف والضيم الذي لحق بأسلوب الحقيقة المباشر عند البلاغيين في التناول والمعالجة؟! فلم يأخذ حقه من الدراسة والعناية، ولم يحظ باهتمامهم كما حظي قسيمه المجاز، وهذا الأمر كان أحد الدوافع لتناول هذا الموضوع.

الثانية: الحقيقة والمجاز في الكلام، وبداية الحاجة إليهما:

إن الكلام - عموماً - لا يعدو أن يكون أحد أمرين لا ثالث لهما، فهو إما أن يكون: حقيقة ، وإما أن يكون: مجازا؛ والحقيقة والمجاز قد وجدتا في الكلام كوسيلتين من وسائل التعبير قبل أن يكونا مبحثين من المباحث البلاغية، وذلك بسبب "أن العرب الأوائل قد عرفوا الألفاظ دالة على معانيها بوضعها إزاء معانيها التي تدل عليها وضعا، بحيث إذا أطلق اللفظ لم يفهم منه سوى ما وضع له، ولا يفهم منه إطلاقا شيء أكثر من ذلك ، فكلمة (نهر) مثلا تشير إلى شريط ماء متدفق ،وكلمة (زهرة) وضعت بإزاء النبتة المخصوصة، وكلمة (بئر) وضعت بإزاء هذه الحفرة العميقة التي يستخرج من قاعها الماء ،وكلمة (أسد) وضعت بإزاء هذا الحيوان المفترس ، وكلمة (وردة) جعلت لهذه النبتة المعينة ، وكلمة (قمر) وضعت بإزاء هذا الكوكب المعروف . . .وهكذا .

وقد استعمل العربي هذه المفردات في تراكيب على نحو خاص مراعيا فيها المعاني التي وضعت لها، وحددت بها عنده ، فأسند التدفق للنهر ، والامتلاء للبئر، والافتراس للأسد، والازدهار أو الذبول للوردة ،والغروب للشمس، وكان هذا هو استخدام العرب الأوائل لمفردات لغتهم، وهذا ما عرف بعد باسم " الحقيقة ".

ولكن العربي لم يتوقف في استخدامه لمفردات لغته عند هذا الحد ، بل وجد نفسه بتقدم الزمن في حاجة إلى التعبير بصيغ جديدة مغايرة لما عرف عنده؛ نظرًا لشعوره بأحاسيس ومشاعر وأفكار،أدرك بسببها أن لغته بألفاظها ودلالتها الحقيقية تضيق عن التعبير عنها، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أخذت المفردات تكتسب معاني جانبية جديدة إلى جانب معانيها الأصلية التي وضعت لها، فأصبحت كلمة (زهرة) تحمل ظلال معاني أخرى . بجانب معناها الأصلي . من النضارة والرقة، وأصبحت كلمة (نهر) تدل على معان جديدة من : الامتداد والحركة المتدفقة والسيولة ، وهذا كله بالإضافة إلى معناها الأصلي الذي وضعت بإزائه ،كما أصبحت كلمة (أسد) تحمل معاني: القوة والبأس والشجاعة والجرأة ، وأوحت كلمة (بحر) بمعاني: الكرم والعلم والاضطراب والتوتر والغموض ، ودلت كلمة (جبل) على معاني: الشمم والارتفاع والمتانة .

بالإضافة إلى ذلك فقد بدأت تظهر طريقة جديدة في الإسناد ،فلم يعد يتقيد بإسناد كل لفظ إلي ما وضع له في الأصل فقط، ولكن أصبح يسند اللفظ إلي ما لم يوضع له في الأصل، فلفظ (غرب) الذي وضع ليسند إلي كلمات خاصة به ملائمة له ،كالشمس والقمر والنجوم ، فيقال مثلا :غربت الشمس ، أصبح يسند إلى كلمات لم توضع له ولا تلائمه إلا على غير جهة الحقيقة ، فيقال :(غرب الأمل) ليومئ هذا الإسناد إلى اليأس والهزيمة ، ومثل ذلك : أشرق الأمل ، وابتسم القمر ، وضحكت الشمس، لتوحي هذه الأسانيد ، بالبهجة والتفاؤل ، وهكذا ارتاد العربي أفقا تعبيريا جديدا يفيض بالثراء والخصوبة والجمال، وفي هذا اللون من التعبير

استخدم العربي قوة خياله، وإمكانيات لغته، فأمكنه ذلك من تصوير أفكاره وأحاسيسه ومشاعره المبهمة التي كانت تراوده ، وهذا النوع من التعبير هو الذي أطلق عليه فيما بعد اسم " المجاز "١.

الثالثة: موقف العلماء من ورود الحقيقة والمجاز في الكلام:

إن اشتمال اللغة العربية عامة، والقرآن الكريم والحديث الشريف خاصة على الحقيقة أمر يكاد يجمع عليه العلماء، أما وقوع المجاز في اللغة والقرآن الكريم وكذلك في الحديث النبوي فقد كان مثار جدل كبير بين علماء الأمة على مر العصور، وقد شغلت هذه القضية فكر كثير من العلماء ،وانقسموا إزاءها إلى ثلاث فرق:

- **الفريق الأول**:يقول بجواز وقوع المجاز في اللغة عامة والقرآن الكريم والحديث بصفة خاصة، بل وغالى بعض هذا الفريق في ذلك فذهب إلى أن اللغة كلها مجاز، وعلى رأس هذا الفريق ابن جني.

- **الفريق الثاني**: أنكر ذلك تمام الإنكار، وجهر بأن اللغة كلها حقائق وليس فيها شيء من المجازات، وعلى رأس هذا الفريق الإمام ابن تيمية.

- **الفريق الثالث**: توسط في هذا الأمر وقال: إن اللغة كلها ليست مجازاً، كما أنها أيضاً ليست كلها حقيقة، وإنما مشتملة على الحقيقة والمجاز، وعلى رأس هذا الفريق ابن الأثير والإمام العلوي. وأرى أن هذا

---

١ ـ ينظر: التصوير البياني د .حفني شرف ص ٥٣، ط:مكتبة الشباب لقاهرة، ط: الثانية، ٥ ١٩٧٠م.

الرأي هو الصواب، وهو الذي نعتقده ونقرّ به؛ نظراً لاعتداله وتؤيده الحجج والبراهين، وليس فيه - كما قيل - إفراط ولا تفريط.

وعن آراء العلماء في تلك القضية، والرأي الذي يتّفق مع المنطق السليم، وتؤيده الأدلة والحجج يحد ثنا ابن الأثير فيقول:" وقد ذهب قوم إلى: أن الكلام كله حقيقة لا مجاز فيه، وذهب آخرون إلى: أنه كله مجاز لا حقيقة فيه،وكلا هذين المذهبين فاسد عندي؛ . . .لأن في اللغة حقيقة ومجازا"١.

ويعد الإمام العلوي أكثر وضوحاً وبياناً من ابن الأثير في عرضه لتلك الآراء حيث يقول:" اعلم أن في الناس من زعم: أن اللغة حقيقة كلها ، وأنكر المجاز ، وزعم أنه غير وارد في القرآن ولا في الكلام. ومنهم من زعم: أن اللغة كلها مجاز، وأن الحقيقة غير محققة فيها".

ثم يرد هذين الرأيين بقوله:" وهذان المذهبان لا يخلوان عن فساد، فإنكار الحقيقة في اللغة إفراط، وإنكار المجاز تفريط.فإن المجازات لا يمكن دفعها وإنكارها في اللغة، فإنك تقول : رأيت الأسد، وغرضك الرجل الشجـــاع ، والله تعالى يقول : ﴿ وَاسْئَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف/٨٢] ، ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء/٢٤] ، إلى غير ذلك.

كما لا يمكن أيضا إنكار الحقائق كإطلاق : الأرض والسماء على موضوعَيْهما.

---

(١) المثل السائر١/٧٤، ٧٥.

وأيضاً فإنه إذا تقرر المجاز وجب القضاء بوقوع الحقائق؛ لأنه من المحال أن يكون هناك مجاز من غير حقيقة".

ثم نراه يختار الرأي الوسط في هذه القضية فيقول:"فإذا بطل هذا القول؛ فالمختار هو الرأي الثالث، وهو : أن اللغة والقرآن مشتملان على الحقائق والمجازات جميعا، فما كان من الألفاظ مفيدًا لما وضع له في الأصل فهو المراد "بالحقيقة"، وما أفاد غير ما وضع له في أصل وضعه فهو"المجاز"١.

وينبغي أن أسجل هنا أن هذه القضية قد وقف معها د/ عبد العظيم المطعني - جزاه الله خيرا - وقفات جادة ومتأنية ، وأشبعها بحثًا ، وناقشها مناقشة هادئة في كتابه الرائع"المجاز في اللغة وفي القرآن الكريم بين الإجازة والمنع". وأعتقد أن تلك المعالجة الدقيقة لم تعرف لباحث قبله.

وهذه خلاصة لما ذكره حول هذا الموضوع، لقد تناوله وعالجه في جميع البيئات العلمية، والمدارس الفكرية، على اختلاف المذاهب والمشارب وهي بيئة: اللغويين والنحاة، والأدباء والنقاد، والبلاغيين والإعجازيين، والمفسرين والمحدثين، والأصوليين والفقهاء ، تعرض لكل ذلك " وهو يدفع بقوة مذهب الإمام ابن تيمية ومشايعيه قديماً وحديثاً في : نفي المجاز في اللغة بوجه عام، وفي القرآن الكريم والحديث النبوي بوجه خاص،

(١) الطراز للإمام العلوي ص٢٣ ،٢٤ ،تحقيق/ محمد عبد السلام شاهين. ط: دار الكتب العلمية - بيروت،ط: الأولى: ١٤١٥هـ ـ١٩٩٥م.

وأشار إلى أن هؤلاء جميعاً جل تمثيلاتهم على المجاز، بل أكثرها ماءً ورونقاً، وأصدقها شاهداً كانت من نصوص القرآن الكريم، ولم يروا في ذلك حرجا"١.

ثم نراه بعد هذه الدراسة المستفيضة يقول:" وبعد هذا التدقيق والتمحيص نقول في كثير من الثقة والاطمئنان : إن إنكار المجاز في اللغة لم يقل به إلا عالم واحد من علماء الأمة قبل عصر الإمام ابن تيمية وابن القيم، وهو: أبو إسحاق الاسفرائيني، وإن إنكار المجاز في القرآن الكريم لم يقل به، ويذكر له أسباباً إلا أربعة من علماء الأمة، وهم: داود الظاهري، وابنه، وابن تيمية، وابن القيم .وأن جملة من قال بإنكار المجاز مطلقاً هم خمسة من علماء الأمة، وهم: أبو إسحاق الاسفرائيني، وداود الظاهري، وابنه، وابن تيمية، وابن القيم"٢.

ثم قال:"وكم تكون نسبة خمسة إلى علماء الأمة الذين لا يحصون عدداً، ومنهم الرواد وأئمة المذاهب في العلوم العربية والإسلامية منذ القرن الثاني الهجري حتى القرن الثامن الذي عاش فيه الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم. كم تكون هذه النسبة يا ترى؟٣. وفي موطن آخر يقول:" إن ظاهرة إنكار المجاز في اللغة وفي القرآن العظيم لم يصح فيها دليل قط، لا من

---

(١) المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع د/ عبد العظيم المطعني ٤٣١/١، ط: مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ ط:الأولى ـ ط:١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م.

(٢) المرجع السابق٢/١١٢٤.

(٣) المرجع السابق الموضع نفسه.

النقل ولا من العقل، ولا من الواقع والمشاهدة والحس، رغم شهرتها وكثرة اللهج بها"١.

ثم بعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة ـ كما يقول ـ مع هذا الموضوع ،وبعد العرض والتحليل والتوضيح، نراه يسجل رأيه في تلك القضية قائلا:"إن ظاهرة إنكار المجاز في اللغة وفي القرآن العظيم، إنما هي مجرد شبهة كتبت لها الشهرة، ولكن لم يكتب لها النجاح".٢

الرابعة:أيهما الأصل، الحقيقة أم المجاز؟

إذا كان الكلام ـ كما أشرنا من قبل ـ لا يعدو أن يكون إما: حقيقة، وإما: مجازا، فأيهما يكون أصلاً للآخر؟.

لقد عرف العلماء اللغة بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ،وقد وضع أصحاب اللغة الألفاظ للدلالة علي الذوات والمعاني ،فلكل لفظ معني ،ولكل ذات لفظ موضوع له ،وإذا أطلق اللفظ انصرف إلي ما استقر من مدلوله في الأذهان، فكلمات مثل :العين والرأس واليد ،والأكل والشرب والنوم، وغير ذلك، قد وضعها واضع اللغة لتدل علي معناها المحدد ،فإذا أطلقت اللفظة انصرف الذهن إلي هذا المعني المحدد لها ،معرضا عن أي شيء آخر؛ وذلك لأن معناها الحقيقي الذي وضعت بإزائه هو الأقرب إليها والأمس بها رحما ،وفي هذا دليل علي أن الحقيقة هي الأصل في الاستعمال .

---

(١) المرجع السابق ٢/١١٤٦.

(٢) السابق٢/١١٤٧.

أما المجاز فهو فرع عنها، فإذا أطلقنا مثلا لفظ (الشمس) انصرف الذهن مباشرة إلى ذلك الكوكب المضيء ، وأما إذا كان المراد من إطلاقه: هو الوجه الحسن، بملاحظة أن هناك وصفا مشتركا بينهما فإن ذلك يأتي في مرحلة تالية لإدراك معناه الأصلي أولا ، وكذلك إذا أطلقنا لفظ (البحر) فإن الذهن ينصرف أولا إلى ذلك المكان المتسع الممتلئ بالماء المالح، وأما إذا كان المراد من إطلاقه : هو الرجل الجواد ، فإن ذلك يتأتى بعد إدراك معناه الحقيقي ، وهكذا١.

إذاً فالحقيقة هي الأصل في الاستعمال أما المجاز فهو فرع عنها؛ لأنه خلاف الأصل.

ولما كانت الحقيقة هي الأصل٢ في الكلام، والمجاز فرع عنها ، فإنه لا يُعدل عن هذا الأصل إلا إذا كان هناك داع له ، وفائدة من ورائه ، وإلا جاء التعبير ساذجا غفلا ، يقول ابن الأثير :" واعلم أنه إذا ورد عليك كلام يجوز أن يحمل معناه على طريق الحقيقة ، وعلى طريق المجاز باختلاف

---

(١) ينظر:علم البيان د/ بدوي طبانة ص ١١٦ ط: دار الثقافة . بيروت . ،القرآن والصورة البيانية د/ عبد القادر حسين ص١٣١ ،ط: دار المنار . القاهرة،ط: الأولى: ١٤١٢هـ . ١٩٩١م.

(٢) هناك من البلاغيين من يرى: إن الحقيقة ليست هي الأصل للمجاز ، وإنما كالأصل له؛لأنها لو كانت أصلا للمجاز لكان لكل مجاز حقيقة ، وليس كذلك إذ التحقيق: أن المجاز لا يتوقف . غالبا. على الحقيقة ألا ترى أن لفظ" الرحمن" استعمل مجازا في المنعم على العموم والإطلاق، ولم يستعمل في المعني الأصلي الحقيقي، أعني: رقيق القلب، فلفظ " الرحمن" مجاز لم يتفرع عن حقيقة،ومن ثم قيل:إنها كالأصل للمجاز؛ لأنها أصل له في الغالب. ينظر: شرح السعد على التلخيص ٣/٤ (ضمن شروح التلخيص) .

لفظه،فانظر،فإن كان لا مزية لمعناه في حمله على المجاز، فلا ينبغي أن يحمل إلا على طريق الحقيقة ؛ لأنها هي الأصل ، والمجاز هو الفرع، ولا يعدل عن الأصل إلى الفرع إلا لفائدة.

مثال ذلك قول البحتري :-

مهيب كحدّ السيف لو ضُربتْ به   ذرا أجأ ظلت وأعلامُها وُهْــدُ١

ويروي أيضا :"لو ضربت به طُلى أجأ " جمع طُلية ، وهي: العنق .

فهذا البيت لا يجوز حمله على المجاز؛ لأن الحقيقة أولى به ، ألا ترى أن الذرا – جمع ذرْوة – وهو أعلى الشيء ، يقال : " ذرْوة الجبل : أعلاه، "والطُلى " جَمع طُلية وهي : العنق، والعنق أعلى الجسَد ، ولا فرق بينهما في صفة العلو هنا ، فلا يُعدل إذا إلى المجاز؛ إذ لا مزية له على الحقيقة .

وهكذا كل ما يجئ من الكلام الجاري هذا المجري ، فإنه إن لم يكن في المجاز زيادة فائدة على الحقيقة لا يُعدل إليه " ٢.

---

(١) ديوانه ١/١٩٥. ط :بيروت للطباعة والنشر .بيروت.ط:١٤٠٠هـ . ١٩٨٠م. والبيت في الديوان هكذا:"مهيباً كنصل السيف . . ." وهو من قصيدته التي يصف فيها الذئب حين لقيه، ومطلعها:

سلام عليكم لا وفاءٌ ولا عهد   أما لكم من هجر أحبابكم بدُّ ؟

وقوله : أجأ : أحد جبلي طيء / أجأ وسلي ، والوهد والوهدة : الأرض المنخفضة ، والهوة في الأرض.

(٢) انظر:المثل السائر ١/ ٧٩، والقرآن والصورة البيانية ص ١٣٧ .وأشير هنا إلى أن هناك من يرى أن استشهاد ابن الأثير ببيت البحتري المذكور على القاعدة التي ذكرها– وهي أنه=

هذا، وقد ذكر الإمام العلوي بعض الفوائد والأسرار التي من أجلها يعدل عن الحقيقة إلى المجاز، وأشار إلى أن ذلك إما أن يرجع إلى اللفظ فقط ، وإما أن يرجع إلى المعنى وحده ، وإما أن يرجع إلى اللفظ والمعنى معاً ، يقول:" اعلم أن الحقيقة إذا كانت هي الأصل في الكلام - كما ذكرتم -، فلأيّ شيء يكون التكلم بالمجاز، وما الباعث عليه ؟ فنقول: العدول عن الحقيقة إلى المجاز قد يكون لأمر يرجع إلى اللفظ وحده، وإلى المعنى وحده، وإليهما جميعا ،فهذه مقاصد ثلاثة:

المقصد الأول: ما يرجع إلى اللفظ على الخصوص، وذلك من أوجه، أما أولاً:فلما يرجع إلى جوهر اللفظ،بأن يكون اللفظ الدال على المجاز أخفّ من الحقيقة على اللسان، إما لخفة مفرداته أو لحسن تعديل تركيبه، أو لخفة وزنها، أو لسلاسته، أو لغير ذلك من الأمور التي تقتضي السهولة فيعدل إلى المجاز لما ذكرناه.وأما ثانياً: فلأن اللفظة المجازية ربما كانت صالحة للقافية إذا كان الكلام شعراً منظوماً، أو لأجل التشاكل في السجع إذا كان الكلام منثورا، والحقيقة غير صالحة في ذلك، أو لأجل أن الكلمة المجازية مألوفة الاستعمال، والحقيقة غريبة وحشيّة، فتكون المجازية أخف

=لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا كان هناك مزية وفضل ،أو سر بلاغي - غير صحيح؛ حيث إن " في "الطلى" معنى – ليس في "الذرا". سوى العلو، فذروة الجبل أعلاه ولكن لا حياة فيها، وطلى الشيء – وهو عنقه - لا يكون إلا لذي روح، فالعنق فيه حياة وإذا أزيل عن موضعه هلك صاحبه، واستعارة "الطلى" في بيت البحتري في الرواية الثانية تلائم المعنى المراد؛ لأن الشاعر أراد تحطيم الجبل، وكذلك من يزال عنقه فإنه يهوى ساقطا، فللمجاز هنا فائدة ومعنى لا يأتي عن طريق الحقيقة المذكور في الرواية الأولى. ينظر: المجاز في اللغة وفي القرآن الكريم بين مجوزيه ومانعيه د/ عبد العظيم المطعني ٢٣٥/١ .

لما يحصل من الإنس المألوفِ ما ليس يحصل في غيره. وأما ثالثاً: فربما كانت اللفظة المجازية جارية على الأقيسة الصحيحة في تصريفها في بيانها، والحقيقة منحرفة عن ذلك؛ فلهذا عدل إلى استعمال اللفظة المجازية من أجل ذلك.

المقصد الثاني: ما يرجع إلى المعنى على الخصوص، وذلك من أوجه، أما أولاً: فلأجل التعظيم، كما يُقال:سلام على الحضرةِ العالية والمجلس الكريم، فيُعدَل عن اللقب الصريح إلى المجاز تعظيماً لحال المخاطب، وتشريفا لذكر اسمه عن أن يخاطب بلقبه، فيقال: سلامٌ على فلان. وأما ثانيا: فلأجل التحقير، كما يعبّر عن قضاء الوطرِ من النساءِ بالوطء، وعن الاستطابة بالغائط، ويُترك لفظ الحقيقة استحقارا له، وتنزها عن التلفظ به؛ لما فيه من البشاعة والغلظة، وقد نزه الله تعالى كتابه الكريم وخطابه الشريف عن مثلِ هذه الأمور، وعدل إلى المجازات الرشيقة لما ذكرناه، فقال: ﴿ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ [النساء/٤٣]،كناية عن الوطء، وقال تعالى: ﴿ كانا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ [المائدة/٧٥]، كنّى به عن قضاء الحاجة؛ لما في لفظ الحقيقةَ من الرّكة والسماجة. وأما ثالثا: فلأجل تقوية حال المذكور، فإذا قلت: رأيت أسداً في سلاحه ـ كان أقوى من قولك: رأيت رجلا يُشبه الأسد ـ كما سنورد الفرق بين الاستعارة والتشبيه ـ، فلا جَرَم عدل إلى المجاز لمكان هذه القوة. وأما رابعا: فلما يحصل في المجازِ من التوكيد، بخلاف الحقيقة، فأنتِ إذا قلت: رأيت أسداً في سلاحه، وبحراً في بُردَيْه، كان أكثر توكيداً ووقعاً في النفوس من قولك: رأيت رجلا كريما أو شجاعا؛ لما يحصل في ذلك من المكانة والمبالغة بذكر المجاز دون الحقيقة.

المقصد الثالث : ما يرجع إلى اللفظ والمعنى جميعاً؛ لما يحصل في المجاز من: تلطيف الكلام وحسن الرشاقة فيه، وتقرير ذلك: هو أن النفس إذا وقفتْ على كلام غير تام بالمقصود منه؛ تشوقت إلى كماله، فلو وقفتْ على تمام المقصود منه؛ لم يبق لها هناك تشوّق أصلا؛ لأن تحصيل الحاصل محال، وإن لم تقف على شيء منه فلا شوق لها هناك، فأما إذا عرفته من بعض الوجوه دون بعض فإن القدْر المعلوم يحصل شوقاً إلى ما ليس بمعلوم، فإذا عرفت هذا فنقول:إذا عُبّر عن المعنى باللفظ الدال على الحقيقة حصل كمال العلم به من جميع وجوهه، وإذا عُبّر عنه بمجازه لم نعرف على جهة الكمال، فيحصل مع المجاز تشوّق إلى تحصيل المجاز، فلا جَرَم كانت العبارة بالمجازات أقرب إلى تحسين الكلام وتلطيفه"١ .

وعلى هذا الأساس، وتلك القاعدة ـ أعني: أنه لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز ولا يُقال به إذا كان التعبير بالحقيقة المباشرة ينهض بأداء المعنى دون نقصان ، وليس وراء العدول عن ذلك من الأسرار واللطائف ما يدعو إليه، فيبقي الكلام ـ حينئذ ـ على حقيقته؛ لأنه الأصل، والعدول عنه خلاف الأصل ـ بني المفسرون لكتاب الله عز وجل آراءهم، فإذا وجدوا أن البيان القرآني يصح أن يحمل على الحقيقة، كما يصح أن يحمل على المجاز، نراهم يرجحون ويفضلون حمله على الحقيقة، خاصة إذا لم يكن هناك ما يدعو إلى حمله على المجاز؛ لأنه ـ كما أشرنا من قبل ـ رجوع إلى أصل الكلام .

---

(١) الطراز ٤٠/١، ٤١، وانظر: التصوير البياني د/ حفني شرف ص٦٧ .

يقول جمال الدين القاسمي : وهو يفسر قول الله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [النساء/٤٧].

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا ﴾ أي: نمحو تخطيط صورها من عين وحاجب وأنف وفم ، قال ابن عباس : طمسها :أن تعمي ﴿ فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا ﴾أي : فنجعلها على هيئة أدبارها ، وهي الأقفاء مطموسة مثلها جزاء على الكفر ، أو ننكسها بعد الطمس فنردها إلى موضع الأقفاء، والأقفاء إلى موضعها، وقد اكتفى بذكر أشدهما .

هذا، وفي الآية تأويل آخر، وهو: أن المراد من طمس الوجوه : مجازه، وهو : صرفهم عن الحق وردهم إلي الباطل، ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبيل الضلالة، يهرعون ويمشون القهقرى على أدبارهم، (وطمس الوجوه) على هذا التأويل يحتمل معنيين :-

<u>**أحدهما**</u>: تقبيح صورتهم، يقال: طمس الله صورته، كقوله: قبح الله وجهه.

<u>**والثاني**</u>:إزالة آثارهم عن بلاد العرب ومحو أحوالهم عنها .

وثمة تأويل آخر،وهو أن المراد بالوجوه: الوجهاء، على أن الطمس بمعنى مطلق التغيير، أي: من قبل أن نغيّر أحوال وجهائهم، فنسلب إقبالهم ووجاهتهم، ونكسوهم صغارا أو أدبارا، وقال بعضهم: الأظهر حمل قوله ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ ﴾الخ على اللعن المتعارف، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ قل

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ. . الآيةَ﴾[المائدة/٦٠]. ففصل تعالىَ بين اللعن وَبين مسَخهم قردة وخَنازير"١.

ثم قال القاسمي: "وأقول: لا يخفى أن جميع ما ذكر من التأويلات، غير الأول – وهو التأويل الحقيقي – لا يساعده مقام تشديد الوعيد، وتعميم التهديد، فإن المتبادر من اللفظ: الحقيقة، ولا يُصار إلى المجاز إلا إذا تعذر إرادتها، ولا تعذر هنا، كما أن المتبادر من اللعن المشبه بلعن أصحاب السبت، هو: المسخ، وهو الذي تقتضيه بلاغة التنزيل؛ إذ فيه الترقي إلى الوعيد الأفظع.

ولا ننكر أن تكون هذه التأويلات ـ غير الأول ـ مما يشمله لفظ الآية، وإنما البحث في دعوى إرادتها دون سابقها، فالحق أن المتبادر من النظم الكريم هو الأول؛ لأنه أدخل في الزجر"٢.

الخامسة: الحقيقة عند البلاغيين:

ذكرنا ـ آنفاً ـ أن البلاغيين عندما تعرضوا للحقيقة لم يتناولوا فيها إلا مسائل قليلة، وهي: تعريفها في اللغة واشتقاقها ونوع التاء فيها، كما عرفوها في اصطلاحهم، وذكروا أقسامها، ثم أخيرًا قارنوا بينها وبين قسيمها المجاز، والآن نستعرض تلك المسائل، فنقول:

(١) محاسن التأويل للقاسمي ١٢٨٣/٥ وما بعدها، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار إحياء الكتب العربية لعيسى الحلبي.

(٢) المرجع السابق: ١٢٨٤/٥.

المسألة الأولى: تعريفها في اللغة واشتقاقها ودلالة التاء الملحقة بها.

إن مادة (حقق) تعني في اللغة:الصدق والوجوب، والثبات والاستقرار، والحقيقة هي: اللفظ الذي أُقرَّ في الاستعمال على أصل وضعه. فيقال: حقيقة الشيء : خالصه وكُنهه، وحقيقة الأمر: الشيء الثابت يقينا .يقول ابن فارس:"إن الحقيقة هي من قولهم : حقَّ الشيءُ : إذا وجب ، واشتقاقه من الشيء المحقق وهو: المحكم ، تقول العرب : ثوب محقّق النسج ، أي : محكمه. قال الشاعر:

تسربل جلد وجه أبيك إنا كفيناك المحققة الرّقاقـــــا

وهذا جنس من الكلام يصدق بعضه بعضا ، فالحقيقة : الكلام الموضوع موضعه الذي ليس باستعارة ولا تمثيل ، ولا تقديم فيه ولا تأخير ، كقول القائل : أحمد الله على نعمه وإحسانه ، وهذا أكثر الكلام ، قال الله جل ثناؤه : ﴿ والذينَ يُؤْمنُونَ بمَا أُنزل إليْكَ وَمَا أُنزلَ من قَبْلكَ وَبالآخرَة هُمْ يُوقنُونَ ﴾ [البقرة/٤] ، وأكثر ما يأتي من الآي على هذا، ومثله في شعر العرب :

وفي الشـــــر نجـــــاة حـــ ـيـــن لا ينجيك إحســـان"١

---

(١) ينظر : الصاحبي لابن فارس ص٣٢٠ ط: دار إحياء الكتب العربية لعيسى الحلبي . القاهرة ط: ١٩٧٨م، ومقاييس اللغة لابن فارس ص تحقيق/ عبد السلام هارون، طبع ونشر: اتحاد الكتاب العرب،ط: ١٤٢٣هـ .٢٠٠٢م. ونشير هنا إلى أن ما ذكره ابن فارس - في كلمة "الحقيقة"واشتقاقها تبعه فيه جل من أتى بعده من اللغويين والبلاغيين.

وجاء في لسان العرب تحت مادة (حقق): " الحقُّ:نقيض الباطل، وحَقَّ الأَمرُ يَحِقُّ ويَحُقُّ - من بابي ضرب وقتل - حَقّاً وحُقوقاً صار: حقّاً وثبت قال الأَزهري معناه وجَب يَجب وجُوباً، وحَقَّ عليه القولُ وأَحْقَقْته أنا وفي التنزيل: ﴿قَالَ الذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾[القصص/٦٣] أي: ثبت. وقوله تعالى: ﴿ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر/٧١] أي : وجبت وثبتت، وكذلك ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ ﴾ [يس/٧]، وحَقَّه يَحُقُّه حقّاً وأَحَقَّه كلاهما: أثبته وصار عنده حقّاً لا يشكُّ فيه وأحقَّه صيره حقّاً. وحَقَّ الأَمرَ يحُقُّه حقّاً وأحقّه كان منه على يقين تقول: حَقَقْتَ الأَمر وأَحْقَقْته إذا كنت على يقين منه. والحَقيقة: ما يصير إليه حَقُّ الأمر ووجُوبُه، وبلغ حقيقةَ الأمر أي يَقينَ شأْنه، وفي الحديث: "لا يبلغ المؤمن حقيقةَ الإيمان حتى لا يَعيب مسلما بعَيْب هو فيه" يعني خالصَ الإيمان ومَحْضه وكُنْهَه ،وحقيقةُ الرجل: ما يلزمه حفظه ومَنْعُه ويَحِقُّ عليه الدِّفاعُ عنه من أهل بيته. والحقيقةُ في اللغة:ما أُقِرّ في الاستعمال على أصل وضعه، والمجازُ ما كان بضد ذلك، وإنما يقع المجاز ويُعدَل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة وهي:الاتساع، والتوكيد، والتشبيه، فإن عُدم هذه الأوصافُ كانت الحقيقة البتّة . وحَقَّ الشيءُ يَحِقُّ بالكسر حقّاً أي وجب. وفي التنزيل: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة/١٣] . وأَحققت الشيء أي: أوجبته، وتَحقق عنده الخَبَرُ أي: صحَّ، وحقق قولَه وظَنَّه تحقيقاً أي: صدَّق، وكلامٌ مُحَققٌ أي رَصين. وثوب مُحَققٌ إذا كان مُحْكَمَ النَّسْجِ. وأَنا حَقيقٌ على كذا، أَي: حَرِيصٌ عليه عن أَبي عليّ،

وبه فسّر قوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّه إلاَّ الْحَقَّ﴾ [الأعراف/١٠٥] ،في قراءة من قرأ به، وقرئ:" حقيق عليّ أن لا أقول"ومعناه: واجب عليّ ترك القول على الله إلا بالحق١.

وفي تاج العروس عند مادة (ح ق ق) ورد:"والحق: المَوْجُودُ الثابتُ الذي لا يَسُوغ إنْكارُه. وحَقيقَةُ الأمْر:ما يَصيرُ إليه حَقُّ الأمْر ووُجُوبُه، يُقال: بَلَغ حَقِيقَةَ الأمْرِ، أي: يَقِينَ شَأْنه. و﴿الحاقة﴾ [الحاقة/١] :النّازِلَةُ الثّابِتَة ،كالحَقّة ،وقيل: سُمّيَت القِيامَةُ حاقةً؛ لأنّها تَحُقُّ كلَّ إنْسانٍ من خَيْرٍ وشَرّ .وحَقَّ الشَيءَ : أَوجَبَهَ وأَثْبَتَه ، وصارَ عنده حَقّاً لا يَشُك فيه، ويُقال:يَحِقّ عليكَ أنْ تفعَل كَذا، أي: يَجبُ كأحَقّه ،وحَقَقَه. وقيل:أحَقّه: صَيَّرَه حَقّاً . وحَقَّ الأمرُ يَحُقُّ بالضمّ ويَحِق بالكسر حَقّةً، بالفتح ، وكذلك حَقّا ،وحُقوقاً، كقُعُود: صارَ حَقّاً ، وثَبَتَ ، قال الأزهَري: مَعناه: وَجَبَ وُجُوباً ، ومنه قولُه تعالى: ﴿ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر/٧١] أي: وَجَبَت وثَبَتَتْ، وكذلكَ قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ ﴾ [يس/٧]. وقال ابنُ دُرَيد : حَقَّ الأمْرُ يَحِقّ حَقّاً، ويَحُقّ: إذا وَقَعَ بلا شَك.حَقّ وحُقّ: (فعيل) بمَعْنى: (مَفعُول) ، قال الشّاعر:

قَصّر فإنّكَ بالتّقْصير مَحْقُوقُ

ويُقال للمَرْأة : أنْتَ حَقيقَةٌ لذلكَ، يَجعَلونه كالاسْم، وأنْت مَحْقُوقَةٌ

---

(١) ينظر:لسان العرب مادة(حقق) . ط:دار صادر - بيروت. ط: الأولى:١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

لذلك، وأنْت مَحْقُوقة أَنْ تَفْعَلي ذلكَ. والحَقيقَة: ما أقر في الاستعْمال على أَصْل وَضعه. وقيل: هو اسمٌ لِماَ أُريدَ به ما وُضِعَ له، (فَعيلَة) من حَق الشّيءُ: إذَا ثَبتَ، بمَعْنَى (فاعلَة)، و(التّاءُ) فيه للنقل: من الوَصفية إلى الاسميَّة، كَما في العَلاَمة، لا للتّأنيث، وهي ضد: المَجاز١.

هذا هو أصل مادة(حقق) ومعناها واشتقاقها كما ورد عند أهل اللغة، والذي يدور. كما أسلفنا. حول الثبات والاستقرار، والرسوخ والوجوب.

وقد نقل البلاغيون ـ عن أهل اللغة ـ ذلك في مصنفاتهم فها هو ذا الخطيب يقول:"الحقيقة في اللغة: وصف بزنة"فعيل" إما بمعنى اسم المفعول فيكون مأخوذاً من قولك: حققتُ الشيء ـ بالتخفيف ـ أحُقه بمعنى: أثبتّه،وإما بمعنى اسم الفاعل فيكون مأخوذاً من قولك: حقّ الشيء يَحق بمعنى: ثبت، أي: أن معنى "الحقيقة" هي: الكلمة المثبَتة في موضعها الأصلي (على اعتبار أنها بمعنى اسم المفعول)،أو هي: الكلمة الثابتة في موضعها الأصلي(على اعتبار أنها بمعنى اسم الفاعل)"٢.

أما عن دلالة التاء الملحقة بلفظ: حقيق(حقيقة)، فقد ورد عن البلاغيين رأيان فيها: الأول يقول:إنها للتأنيث، وصاحب هذا الرأي هو: السكاكي، حيث يقول:"والتاء عندي للتأنيث في الوجهين ـ أي:في فعيل إذا

(١) ينظر:تاج العروس من جواهر القاموس للزَّبيدي مادة (ح ق ق) ط: طبع ونشر دار الهداية.

(٢) الإيضاح مع البغية٣/٨٩،وانظر:شروح التلخيص٤/٤ ، والمطول ص ٣٤٨، ومفتاح العلوم ص٣٦٠.

كانت بمعنى:فاعل،أو بمعنى مفعول .؛ لتقدير لفظ" الحقيقة" قبل التسمية: صفة مؤنث غير مجراة على الموصوف وهو: الكلمة"١ .ولم يرتض الخطيب ما قاله السكاكي عن هذه "التاء" فعلق عليه بقوله:وفيه نظر" .

والآخر: يقول:إنها لنقل الكلمة من الوصفية إلى الاسمية.وصاحب هذا الرأي هو:جمهور البلاغيين يقول الخطيب:" وقيل:.إن التاء . هي لنقل اللفظ من الوصفية إلى الاسمية الصرفة، كما في قيل : أكيلة ونطيحة،إن التاء فيهما لنقلهما من الوصفية إلى الاسمية، فلذلك لا يوصف بهما، فلا يُقال: شاة أكيلة أو نطيحة" .

وقد أبان ابن يعقوب عن كيفية النقل ودلالته في هذه التاء بصورة أوضح قائلا:"إن التاء . في كلمة الحقيقة . للنقل من الوصفية إلى الاسمية، وبيان ذلك: أن التاء في أصلها تدل على معنى فرعي وهو:"التأنيث"،فإذا روعي نقل الوصف عن أصله الذي هو:"التذكير"إلى ما كثر استعماله فيه وهو:"الاسمية" اعتبرت التاء فيه، وأتي بها إشعارا بفرعية "الاسمية"فيه، كما كانت في" الوصفية"إشعارا "بالتأنيث"،وذلك كقولهم:"ذبيحة" فإنها بلا تاء: وصف في الأصل لكل مذبوح من:إبل أو بقر أو غنم ، ولكن كثر استعمالها في الشاة، واعتبر نقلها اسما لها، فجعلت "التاء" فيها:للنقل من الوصفية للاسمية،وكذلك لفظ"الحقيقة" هنا، لما اختص ببعض ما يوصف به وصار اسما له؛ جعلت للنقل فيه"٢ .

---

(١) مفتاح العلوم ص ٣٦٠.

(٢) الإيضاح ٣/٨٩، وانظر: مواهب الفتاح لابن يعقوب٤/٤ (ضمن شروح التلخيص) .

والذي أرجحه هنا هو رأي الجمهور أعني:أن التاء في لفظ الحقيقة لنقل الكلمة من الوصيفة إلى الاسمية، أما القول: بأنها للتأنيث باعتبار أن الحقيقة اسم للكلمة فهذا لا يصح؛ لأنه يُقال:"هذا اللفظ حقيقة"، ولو كانت التاء فيها للتأنيث لم يصح ذلك؛ لعدم اتحاد الصفة مع الموصوف في التذكير والتأنيث.

ويلاحظ هنا أيضاً أن البلاغيين اقتفوا أثر اللغويين في دلالة تلك التاء الملحقة بكلمة الحقيقة"١.

المسألة الثانية:تعريف مصطلح"الحقيقة" عند البلاغيين:

إن "الحقيقة" في اصطلاحهم تعني:"الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح به التخاطب". ثم أخذوا يشرحون هذا التعريف، ويوضحون ما فيه من أوجه الاحتراز؛ ليثبتوا أنه تعريف جامع مانع، فيقولون: قولنا: الكلمة "المستعملة " احتراز عما لم يستعمل، فإن الكلمة قبل الاستعمال لا تسمى حقيقة.

وقولنا: "فيما وضعت له " احتراز عن شيئين:

أحدهما: ما استعمل في غير ما وضعت له غلطاً، كما إذا أردت أن تقول لصاحبك: خذ هذا الكتاب، مشيراً إلى كتاب بين يديك، فغلطت فقلت: خذ هذا الفرس.

والآخر: أحد قسمي" المجاز"، وهو:ما استعمل فيما لم يكن موضوعاً

---

(١) راجع: ما ذكرناه آنفاً في آخر كلام صاحب " تاج العروس" عند اشتقاق كلمة: (حقق).

له لا في اصطلاح به التخاطب ولا في غيره، وذلك كاستعمال لفظة"الأسد" في الرجل الشجاع.

وقولنا:" في اصطلاح به التخاطب "، احتراز عن القسم الآخر من" المجاز"، وهو:ما استعمل فيما وضع له لا في اصطلاح به التخاطب، وذلك كلفظ"الصلاة" يستعمله المخاطِبُ بعرف الشرع في "الدعاء" مجازا.

المقصود "بالوضع":لقد اشتمل تعريف الحقيقة على "الوضع"، واعتبر هو الأساس الذي يرجع إليه في تحديد نوع الكلمة من جهة الحقيقة أو المجاز، بل وإلى تعيين أقسامهما أيضاً، فما المراد به؟

"الوضع" عند جمهور المحققين هو: تعيين اللفظ للدلالة على معنى بنفسه. وقولنا:" بنفسه"احتراز من تعيين اللفظ للدلالة على معنى بقرينة ـ أعني: المجاز ـ فإن ذلك التعيين لا يسمى وضعاً. ودخل" المشترك"في الحد؛ لأن عدم دلالته على أحد معنَيَيْه بلا قرينة لعارض ـ أعني: الاشتراك ـ لا ينافي تعيينه للدلالة عليه بنفسه، وذلك كلفظ" القرء" فقد عيّن تارة للدلالة على "الطهر" بنفسه، وعيّن تارة أخرى للدلالة على" الحيض" بنفسه كذلك، فهو موضوع لكل منهما على استقلال.

وقيل:إن الوضع ـ وهذا القول ينسب إلى :عباد بن سليمان الصيمري وهو من المعتزلة ـ هو: دلالة اللفظ على معناه لذاته،بمعنى: أن بين اللفظ والمعنى علاقة ذاتية طبيعية ربطت بينهما، واقتضت دلالة اللفظ على معناه ، فكل من سمع اللفظ؛ فهم المعنى بهذه العلاقة الذاتية، وحجة صاحب هذا الرأي ثلاثة أمور:

الأول: وجود العلاقة الذاتية بين كثير من الألفاظ ومعانيها، فلفظ "العُواء"

بالضم، إنما دل على صوت الذئب؛ لما بين الدال والمدلول من علاقة ذاتية هي: التوافق في الصوت والحروف، ومثله "المواء" بضم الميم لصوت القط، و"القهقهة" لصوت الضاحك، إلى غير ذلك مما فيه توافق بين الدال والمدلول.

الثاني: أنه لولا وجود هذه العلاقة بينهما لكان اختيار لفظ دون آخر ترجيحاً بلا مرجح.

الثالث: أن للحروف في أنفسها خواصاً، وصفاتاً ، . وذلك "كالفصم" بالفاء التي هي حرف رخو، فإنه وضع لكسر الشيء من غير أن يَبينَ، و"كالقصم" بالقاف التي هي حرف شديد، فإنه وضع لكسر الشيء حتى يَبِينَ، ولا شك أن كسر الشيء مع البينونة أشد وأقوى من الكسر بلا بينونة . كما أن لهيئات تركيب الحروف أيضاً خواصاً وصفاتاً، تقتضي ألا يهمل أمرها عند وضع اللفظ للمعنى، بأن يراعى التناسب بينهما أداء لحكمة اتصاف الحروف، أو هيئاتها بتلك الخواص، وذلك مثل وزن" الفَعَلان، والفَعَلي" بالتحريك فيهما ، فإنهما وضعا لما فيه حركة واضطراب، كالنَّزَوَان والغليَان، وكالحَيَدَى والجَمَزَى وصفين للحمار السريع ،ومثل وزن "فعُل" كشَرُفَ وعَظُمَ فإنه يدل على أفعال الطبائع والسجايا .

وقد حُكم على هذا الرأي بالفساد، وردّ عليه بعدة ردود، منها :

أولا: لو أن اللفظ يطلب المعنى لعلاقة ذاتية بينهما؛ للزم أن يفهم

الإنسان معنى اللفظ في أي لغة من اللغات ، بدون حاجة إلى تعلم متى رجع إلى ما بينهما من علاقة، والواقع ليس كذلك ،بل لما اختلفت اللغات في معنى اللفظ الواحد باختلاف الأمم؛لأن اللفظ دال بذاته، وما بالذات لا يختلف باختلاف الغير واللازم باطل.

ثانياً: لو أن اللفظ دال بذاته على المعنى؛ لامتنع أن يدل بواسطة القرينة على المعنى المجازي دون الحقيقي،كما في "الأسد"المستعمل في الرجل الشجاع بقرينة "الحمام"مثلا ،ولامتنع أيضاً أن ينقل اللفظ من معنى إلى آخر بحيث لا يفهم منه إلا المعنى الثاني"كالصلاة"المنقولة من معنى الدعاء إلى الأركان الخاصة، وكالدابة المنقولة من كل ما يدب على الأرض إلى ذوات الأربع؛لأن اللفظ ـ فيما ذكرنا ـ دال بذاته على المعنى الأول، وما بالذات لا يزول بالغير واللازم باطل.

ثالثاً:لو كانت المناسبة الذاتية دليلاً على المعنى فيما بينهما من ذلك التوافق في الصوت والحرف كالذي مثل به هذا القائل من"العُواء،والمواء،والقهقهة"، فكيف تنهض دليلاً فيما لا توافق بينهما، مع ما نعلمه من خلو غالب الألفاظ من هذا التوافق؟ .

رابعاً: ماذا يقول صاحب هذا الرأي فيما هو مشاهد من دلالة كثير من الألفاظ على معانيها، وعلى أضداد هذه المعاني، فأي أثرٍ للمناسبة الذاتية هنا بين اللفظ، وضد معناه؟ .

خامساً: هلا كفي أن يكون مجرد عروض اللفظ، دون غيره للخاطر مرجحا ، ودافعا إلى اختياره؟ .

سادساً:أن اعتبار التناسب بين اللفظ والمعنى بحسب خواص الحروف أو هيئات تركيبها. كما قيل إنما يظهر في بعض الكلمات . كالأمثلة التي ذكرتُ آنفا .، أما اعتباره في جميع الكلمات من لغة واحدة، فضلاً عن جميع اللغات، فمتعذرٌ أيما تعذر، ولعل تلك الألفاظ المذكورة وما شاكلها وضعت لمعانيها اتفاقا، بدون مراعاة التناسب بينهما ١ .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن مصطلح" الوضع" الذي ذكره البلاغيون في تعريفهم للحقيقة والمجاز،والمعتبر في التمييز بينهما إنما هو"الوضع اللغوي"، فالكلمات التي استعملت فيما وضعت له سميناها "حقيقة"، والتي استعملت في غير ما وضعت له سميناها" مجازا" .وليس المقصود به الوضع الأول"أعني: الصورة التي تحققت بها اللغة عند نشأتها الأولى،وإنما المراد به الوضع أو الاستعمال العرفي،أعني: الدلالات التي يشيع استخدام الكلم فيها في عرف الاستعمال، وهو الذي يستطاع في ضوئه التفرقة بين الحقيقة والمجاز،والذي يقود ـ بالتالي ـ إلى الوعي بتطور اللغة لا الإيمان بثباتها أو جمودها"٢ .

المسألة الثالثة: **أقسام الحقيقة عند البلاغيين**:

إن البلاغيين قد قسموا الحقيقة بالنظر إلى الواضع إلى أربعة أقسام:فإذا كان واضع تلك الحقيقة هو واضع اللغة؛ سميت(حقيقة لغوية)،

---

(١) يراجع : الإيضاح مع البغية ٨٤/٣ ، وانظر: شروح التلخيص٨/٤ ، والمنهاج الواضح لحامد عوني ١٩٨/٣ ط: مكتبة الجامعة الأزهرية ط: ١٩٧٢م.

(٢) محاضرات في علم البيان د/ حسن طبل ص١٢٠، ١٢٨، ط: مكتبة الزهراء، ط: ١٩٨٤م.

وإذا كان واضعها واضع الشرع؛ سميت(حقيقة شرعية)، وإذا كان واضعها أهل عرف خاص؛ سميت(حقيقة عرفية خاصة)، وإذا كان واضعها أهل عرف عام؛ أطلق عليها(حقيقة عرفية عامة) .

وإليك الحديث عن هذه الأقسام بشيء من التفصيل:

أولاً:الحقيقة اللغوية: وهي ما وضعها واضع اللغة، ودلت على معان مصطلح عليها في تلك المواضعة،وذلك نحو ألفاظ:السماء، الأرض،الإنسان،النبات، الفرس. . .إلى آخره، فإذا استعملت هذه الألفاظ في معناها الأصلي، فإنها تكون حقيقة لغوية، وإذا استعملت في غيره فإنها تكون مجازاً، ومثل كلمة"أسد" إذا أطلقها المخاطِب على "السبع" فإنها تكون حقيقة لغوية .

ثانياً: الحقيقة الشرعية: وهي اللفظة التي يستفاد من جهة الشرع وضعها لمعنى غير ما كانت تدل عليه في أصل وضعها اللغوي، وهي نوعان:.

الأول: أسماء شرعية:وهي التي لا تفيد مدحاً أو ذماً عند إطلاقها نحو: الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، وسائر الأسماء الشرعية.

والآخر: أسماء دينية:وهي التي تفيد مدحاً أو ذماً نحو: مسلم، ومؤمن، وكافر، وفاسق، ومنافق ،إلى آخره .

ثالثاً: الحقيقة العرفية العامة: وهي الألفاظ التي وضعها أهل العرف العام،أي: التي لم يختص بوضعها طائفة مخصوصة من الناس، وذلك كلفظ"دابة" ، فإنها وضعت في الأصل لكل ما يدب على الأرض ، فيشمل

ذلك الحيوانات والحشرات وغير ذلك، ولكنها اختصت - من بين سائر ما يدب على الأرض - ببعض الدواب ذوات القوائم الأربع مثل: الحمار، والبغل، والفرس.

رابعا: الحقيقة العرفية الخاصة: وهي الألفاظ التي وضعها أهل عرف خاص، وجرت على ألسنة العلماء من الاصطلاحات التي تخص كل علم ، فإنها في استعمالها تعتبر حقائق، وإن خالفت الأوضاع اللغوية، وذلك نحو: ما يجريه أهل الحرف والصناعات والعلوم فيما يفهمونه بينهم، مثل ألفاظ: الجوهر، والعَرَض، والكَوْن ،وغير ذلك مما يستعمله أهل الكلام في مباحثهم،ومثل: الرفع، والنصب،والجزم،والحال، والتمييز، وغير ذلك مما يستعمله النحاة في مُواضعاتهم.

هذا، ويلاحظ أن الحقيقة اللغوية هي أساس اللغة، أما الحقيقة الشرعية والعرفية، فهما نقل للغة إلى معانٍ جديدة يصطلح عليها الناس(١) .

النقطة السادسة:المقارنة بين القيمة الجمالية لأسلوبي الحقيقة والمجاز:

إن هذه النقطة تعد من أهم الدوافع والأسباب التي كانت وراء تناول هذا الموضوع؛ حيث إن المقولة الذائعة في مصنفات البلاغيين وهي:" أن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة"، أعتقد أنها كانت وراء إحجام

---

(١) يراجع: الطراز ص٢٦، والإيضاح٣/٨٨، وشروح التلخيص٤/٢٧، ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها د/ أحمد مطلوب ص٤٧١ ط:مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، ط: الثانية ط:١٩٩٦م.

وعزوف كثير من العلماء عن تناول أسلوب الحقيقة، والإبحار في أعماقه، لاستخراج درره ولآلئه المكنونة في الأساليب البليغة الرائقة، إننا نلاحظ أن البلاغيين في الوقت الذي يربطون فيه بين وجود أسلوبي الحقيقة والمجاز، على اعتبار أن أحدهما لا تتضح مكانته إلا بذكر الآخر، فإنا نراهم حين يقارنون بينهما ينتهون إلى نتيجة واحدة - وهي التي ذكرناها آنفا- أعني:"أن المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة "،وكأن هذه المقولة التي تناقلها العلماء - على إطلاقها- قد أصبحت أمرا مسلما به، حتى وجدناها تتردد في كلامهم جميعا .

وفي هذا المقام نجد أن هناك عدة أسئلة تفرض نفسها، وهي:من صاحب تلك المقولة التي ذاعت في تراثنا البلاغي؟ والتي كان من آثارها الإهمال الذي أصاب الحقيقة، وهل صحيح: أن المجاز عموما أبلغ من الحقيقة؟ وما المقصود من الأبلغية عندهم ؟ هل هي من البلاغة أم من المبالغة؟ .

وللإجابة عن التساؤل الأول والثاني :أقول: الذي يبدو لي أن ابن رشيق ت(٤٥٦هـ) يعد هو أول من جهر بهذه المقولة صراحة، وإن وردت عند من سبقه ضمنا ،ثم تناقلها اللاحقون من بعده، وعبارته التي سجلها في كتابه (العمدة) هي :"والمجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة، وأحسن موقعا في القلوب والأسماع "١ .

---

(١) العمدة ١/ ٤٣٠ . تحقيق د/ النبوي شعلان ، ط: مكتبة الخانجي - القاهرة. ط: الأولى: ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

لاحظ قوله:" في كثير من الكلام "،إنه يتحفظ في ذكرها ، ويقيد إطلاقها، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على مدى وعيه وفهمه لأسرارِ الكلام وإدراك مراميه،إن فحوى عبارته هذه تشير إلى أن هناك مواطنا للمجاز لا يكون فيها أبلغ من الحقيقة، وإنما يكون هو والحقيقة سواء في أداء المعنى، بل ربما تكون الحقيقة أبلغ وأبين منه في ذلك.

وهذه المقولة لها واقع عند من سبقه من البلاغيين والنقاد من أمثال:الآمدي ت (٣٧٠هـ)، والرماني ت(٣٨٦هـ) ،وابن جني ت(٣٩٢ هـ) ،وابن فارس ت(٣٩٥هـ)، وأبي هلال العسكري ت(٣٩٥هـ)، والشريف الرضي ت(٤٠٤هـ)، وابن سنان ت(٤٦٠هـ)، وغيرهم.

وإليك بعض أقوالهم التي تضمنت القول بأبلغية المجاز على الحقيقة،يقول الرماني في تعليقه علي قول الله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾[الحجر/٩٤]، "حقيقته:فبلغ ما تؤمر به، والاستعارة أبلغ من الحقيقة؛لأن الصدع بالأمر لابد له من تأثير كتأثير صدع الزجاجة، والتبليغ قد يصعب حتى لا يكون له تأثير فيصير بمنزلة ما لم يقع، والمعنى الذي يجمعهما الإيصال، إلا أن الإيصال الذي له تأثير كصدع الزجاجة أبلغ"، كما يعلق على قوله عز وجل : ﴿ إنا لَمَّا طغى المَاءُ حَمَلْنَاكُمْ في الجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة/١١] بقوله:"حقيقته:علا، والاستعارة أبلغ؛لأن طغى علا قاهرا وهو مبالغة في عظم الحال"[١].

---

(١) النكت في إعجاز القرآن للرماني ص٨٠ (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق د/ محمد خلف الله، د/ محمد زغلول سلام، ط: دار المعارف ـ القاهرة..

ويقول أبو هلال في تعليقه على قول الله تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [مريم/٤]، " حقيقته: كثر الشيب في الرأس وظهر، والاستعارة أبلغ؛ لفضل ضياء النار على ضياء الشيب، فهو إخراج الظاهر إلى ما هو أظهر منه، ولأنه لا يتلافى انتشاره في الرأس، كما لا يتلافى اشتعال النار"،كما يعلق على قوله تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ﴾ [السجدة/٢١]،بقوله:"حقيقته: لنعذبنهم، والاستعارة أبلغ؛ لأن حس الذائق أقوى لإدراك ما يذوقه، وللذوق فضل على غيره من الحواس. . .ألا ترى أن الإنسان إذا رأى شيئاً لم يعرفه شمه، فإن عرفه وإلا ذاقه، لما يعلم أن للذوق فضلاً في تبين الأشياء"١.

ويعلق ابن سنان الخفاجي على قوله تعالى : ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [مريم/٤] ، بقوله:" الاشتعال للنار، ولم يوضع في أصل اللغة للشيب، فلما نقل إليه؛ بان المعنى لما اكتسبه من التشبيه؛لأن الشيب لما كان يأخذ في الرأس ، ويسعى فيه شيئاً فشيئاً حتى يحيله إلى غير لونه الأول كان بمنزلة النار التي تشتعل في الخشب وتسرى - فيه - حتى تحيله إلى غير حالته المتقدمة، فهذا هو نقل العبارة عن الحقيقة في الوضع للبيان، ولا بد أن تكون أوضح من الحقيقة لأجل التشبيه العارض فيها؛لأن الحقيقة لو قامت مقامها كانت أولى؛لأنها الأصل، والاستعارة الفرع"٢.وغير ذلك كثير.

---

(١) الصناعتين لأبي هلال العسكري ص٢٧٨، ٢٨١.

(٢) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص١٣٤ تحقيق/ عبد المتعال الصعيدي، ط: مكتبة ص... . القاهرة،ط: ١٩٥٢م.

وعندما أتى ابن رشيق ت(٤٥٦هـ)، . ورأى مثل هذه المقولات وغيرها ، والتي ترفع من شأن العبارة المجازية، أياً كان نوعها، ووجد من سبقه يكادون يجمعون على أن المجاز يفيد ما لا تفيده الحقيقة، ولولا ذلك لكانت الحقيقة أولى منه . صاغ ما قاله السابقون في هذه المقولة الشهيرة: "والمجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة"، وتبعه فيها جل من أتى بعده، وأصبحت تلك المقولة ذائعة الصيت في تراثنا البلاغي، بل وزادوا عليها، ولم تنقل كما قالها .

وعندما جاء سيبويه البلاغة وخليلها. على حد تعبير د/ عبد العظيم المطعني١ . الإمام عبد القاهر الجرجاني:رأيناه في كتابه(دلائل الإعجاز) ينسب إلى من سبقه هذه العبارة، ويصوغها صياغة تؤكد ارتضاءه لها، فيقول: "قد أجمع الجميع على أن "الكناية" أبلغ من الإفصاح، و"التعريض" أوقع من التصريح، وأن "للاستعارة" مزية وفضلا، وأن "المجاز" أبداً أبلغ من الحقيقة "٢.

وإذا أنعمنا النظر في نظمه لتلك العبارة لرأينا أن فيها تسامحاً إلى حد ما؛ حيث إنه بدأها بقوله " قد أجمع الجميع "، ونحن نعلم أن الحرف "قد" عندما يدخل على الفعل الماضي فإنه يفيد التحقيق والتأكيد، ثم عندما ذكر" الكناية والتعريض" ذكر معهما المفضل عليه" الإفصاح والتصريح"، وعندما ذكر "الاستعارة" لم يذكر المفضل عليه معها،. ربما لشهرته لم يذكره

---

(١) ينظر: المجاز٢/١٠٧١.

(٢) دلائل الإعجاز ص٧٠، تحقيق/ محمود محمد شاكر،ط:المدني - القاهرة،وجدة . ط:الثالثة.ط: ١٤١٣هـ . ١٩٩٢م.

وهو"التشبيه". وإنما قال"لها مزية وفضلا،ثم خرج من التعبير بهذا الخاص وهو"الاستعارة" إلى التعبير بلفظ العموم، فقال"وأن المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة"، فجمع بين المفضل والمفضل عليه معا؛لإفادة التأكيد، ثم لاحظ قوله"أبداً" التي هي ظرف زمان يفيد الدوام والاستمرار.

فمعنى كلامه - رحمه الله - أن المجاز أينما حل في العبارة كان أفضل وأبلغ، مع أنه نفسه ذكر أن هناك نوعاً من الاستعارة يسمى بالاستعارة "غير المفيدة"١، فكيف يكون أبلغ دائماً ومنه غير المفيد ؟ كما أن هناك من النقاد من قال بأن الاستعارات ليست كلها على درجة واحدة من الجمال، فهناك الاستعارات التي قيل عنها أنها قبيحة مطرحة٢.

ومن ثم يكون قوله:"إن المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة" فيه تسامحٌ، وكان عليه أن يقيد ذلك بالمجاز "المفيد"لا غير، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنه قال في صدر عبارته"قد أجمع الجميع"، وهذا يدل على أن جميع من سبقه من العلماء قد قال بأفضلية المجاز على الحقيقة ، مع أن هناك منهم من ساوى بينهما في ذلك كالباقلاني ت(٤٠٣هـ)، وذلك في قوله:"والتصرف في الاستعارة البديعة يصح أن يتعلق به الإعجاز، كما يصح مثل ذلك في حقائق الكلام؛ لأن البلاغة في كل واحد من البابَيْن، تجري

---

(١) راجع: أسرار البلاغة١ص٣٠ ،٤٠٤.

(٢) انظر: الموازنة ص١٨٧، ٢٠٨، تحقيق/ السيد أحمد صقر، ط: دار المعارف ،١٩٦٥م ،وسر الفصاحة ص١٣٩، والوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني ص٤٣٠، تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي البجاوي، ط: عيسى الحلبي - القاهرة.

مجرى واحدًا، وتأخذ مأخذاً مفردًا"١.

ولو أنه خفف من عبارته تلك وقال مثلا:"أجمع كثير من السابقين على كذا" لكان كلامه أقرب إلى الصواب والدقة.

ومن ثم نقول:إن الادعاء بأن المجاز على عمومه أبلغ من الحقيقة، ادعاء لا يمكن قبوله؛ لأنه غير دقيق، ولا يستند إلى دليل.

ثم عندما نأتي إلى السكاكي ت(٦٢٦هـ) نجده يقتفي أثر عبد القاهر ويردد المقولة نفسها، فيقول:" واعلم أن أرباب البلاغة، وأصحاب الصياغة للمعاني مُطبقون على أن: المجاز أبلغ من الحقيقة، وأن الاستعارة أقوى من التصريح بالتشبيه، وأن الكناية أوقع من الإفصاح بالذكر"٢.

ثم نراه يشرح تلك العبارة ويوضحها، ويُبين المغزى منها، ذاكراً العلة والسبب الذي من أجله كان المجاز في الكلام أبلغ من الحقيقة، مشيرا إلى أن ذلك يرجع إلى طبيعة المجاز نفسه، وأن الشيء معه يقدم مصحوبا بدليله، متأثرا في ذلك بما قرره عبد القاهر في هذا الشأن - يقول السكاكي: "والسبب في أن المجاز أبلغ من الحقيقة، هو: ما عرفت أن مبنى المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم، فأنت في قولك :"رعينا الغيث"، وهو التعبير المجازي - ذاكرا للمزوم "النبت" مريدا به لازمه، بمنزلة مُدّعي الشيء ببينة؛ فإن وجود الملزوم شاهد لوجود اللازم؛ لامتناع انفكاك الملزوم عن اللازم،

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص٢٨٤ تحقيق/ السيد أحمد صقر، ط: دار المعارف القاهرة ط:١٩٧٥م.

(٢) مفتاح العلوم ص ٤١٢.

لأداء انفكاكه عنه إلى كون الشيء ملزوماً غير مُلزم باعتبار واحد،أما قولك: "رعينا النبت ". وسو التعبير الحقيقي . فأنت فيه تكون مُدّعيا للشيء لا ببينة، وكم بين ادعاء الشيء ببينة، وبين ادعائه لا بها١ .

وعندما نصل إلى الخطيب القزويني ت(٧٣٩هـ) نجده يحذو حذو من سبقه فينقل كلامهم في ذلك، ويقول: " أطبق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، وأن الاستعارة أبلغ من التصريح بالتشبيه، وأن التمثيل على سبيل الاستعارة أبلغ من التمثيل لا على سبيل الاستعارة، وأن الكناية أبلغ من الإفصاح بالذكر"٢ .

وما قاله العلوي ت(٧٤٩هـ) في "الطراز" لا يخرج عما قيل قَبلُ حيث يقول:"اعلم أن أرباب البلاغة، وجهابذة أهلِ الصناعة، مُطَبقون على أن المجاز في الاستعمال أبلغ من الحقيقة، وأنه يُلطِفُ الكلام، ويكسبه حلاوة، ويكسوه رشاقة"٣ .

أرأيت كيف ذاعت تلك المقولة"المجاز أبلغ من الحقيقة" في مصنفات البلاغيين على مر العصور، حتى أصبحت كثيرة الدوران فيما بينهم ؟ !

كما أن هذه المقولة تومئ إلى أن هناك اتفاقا بين علمائنا الأجلاء على أن التعبير بالمجاز أعظم تأثيرا،وأكثر جمالاً من التعبير بالحقيقة،ولكن" هذا الحكم يفتقر إلى الدقة؛ لأن هناك كثيراً من التعبيرات المجازية فقدت

---

(١) المرجع السابق الموضع نفسه بتصرف .

(٢) الإيضاح مع البغية٣/١٩١ .

(٣) الطراز ص ٢٠٦ .

قدرتها على الإثارة ،فماتت وتحجرت، وأنْ هناك كثيراً من الأساليب الحقيقية تشتمل على طاقة هائلة من الحياة والقدرة على الإثارة، فالمثال التقليدي"أسد شاكي السلاح"، مثال متحجر بارد يفتقر إلى الطاقة المثيرة، وإنه بوسع الشخص أن يعبر عن "الشجاع" بأسلوب حقيقي أكثر إثارة للانتباه، وتحريكاً للعواطف، فيمكن أن يقال مثلا:"دخل الحرب غير هياب، دخلها وأسراب الطائرات المدوية ،ودخان القنابل والحرائق الهائلة يغطي السماء، لا تمضي ساعة بل أقل منها إلا وسقط إلى جنبه الواحد أو الاثنان مضرجين بالدم، ويلهجان بالشهادة، أما هو فكان على شراسته يواجه العدو، ويضمد الجرحى، ويواري القتلى من الشهداء"١.

أما الإجابة عن التساؤل الثالث: وهو:ما المقصود من الأبلغية عندهم ، هل هي من البلاغة أم من المبالغة؟ .

أقول: إن كلمة"أبْلَغُ" أفعل تفضيل، وهي إما أن تكون مأخوذة من الفعل الثلاثي:"بَلغَ" ومصدره "بلاغة" ومعناها اللغوي:أفضل وأحسن. وإما أن تكون مأخوذة من الفعل الرباعي:"أبْلَغَ" ومصدره "إبلاغا" أو مأخوذة من الفعل "بَالغَ" ومصدره"مبالغة". وصياغة أفعل التفضيل من الفعل غير الثلاثي "جائز قياسا مطلقا على مذهب سيبويه والمحققين من أصحابه واختاره ابن مالك إن كان الفعل مزيدا بالهمزة في أوله"٢،ونقل الرضي في

---

(١) المجاز في البلاغة العربية د/ مهدي صالح السامرائي ص٢٣٨،ط:دار الدعوة – سورية ،ط: الأولى: ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

(٢) الكتاب لسيبويه١/٣٧، ٣/٦٤ تحقيق الشيخ/ عبد السلام هارون. ط: دار الجيل . بيروت. ط: الأولى. وانظر: شرح التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهري ٢/٩١، وشرح الكافية الشافية لابن مالك٢/١٠٨٩، وشرح جمل الزجاجي لابن عصفور١/٥٧٩

شرح الكافية عن" الأخفش والمبرد جواز بنائه من جميع الأفعال المزيد فيها"١. ويكون المعنى: أن الكلام الذي يشتمل على المجاز يصبح أكثر مبالغة من غيره،وما ذكره عبد القاهر حول شرحه لعبارته يؤيد هذا المعنى الثاني، أما الأول وهو أنها مأخوذة من البلاغة فلا يتسق مع مغزى العبارة؛لأنه ـ كما قيل ـ "رب حقيقة تكون أبلغ من مجاز؛ لوقوعها في مقام لا يستدعي المبالغة"٢ .

إذاً كلمة أبلغ هنا لا يمكن أن تحمل على البلاغة الاصطلاحية، وهي: المطابقة لمقتضى الحال؛ لأنها تثبت للحقيقة أيضاً، إذ قد يكون الحال لا يقتضي إلا الحقيقة فتكون أبلغ من المجاز، أي: أكثر مطابقة للحال منه.

وننبه هنا إلى أن الإمام عبد القاهر عندما ذكر عبارته عن أبلغية المجاز على الحقيقة ،لم يرم بها ـ كغيره ـ دون شرح أو توضيح، بل وقف أمامها ليوضح مكمن الأبلغية، أين هي؟ مع بيان العلة والسبب في ذلك ، حتى تطمئن النفوس ،وتسكن تمام السكون ـ على حد تعبيره ـ إذا عرفتْ السبب في ذلك والعلة، ولمَ كان كذلك، ثم أشار إلى أن الأبلغية في "المجاز والاستعارة والكناية والتمثيل"، ليس معناها أنها تفيد زيادة في أصل المعنى لا يفيدها ما يقابلها، وإنما المراد: أنها تفيد توضيح الصورة مع تقوية المعنى وتأكيده.فالمعنى لا يتغير حين نسوقه في أسلوب المجاز أو الحقيقة، فلن

---

(١) شرح كافية ابن الحاجب للرضي٤/٢٣٠ .تحقيق د/ إميل بديع يعقوب ط: دار الكتب العلمية ـ بيروت. ط: الأولى: ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

(٢) تجريد العلامة البناني مع مختصر العلامة/ سعد الدين التفتازاني٢/٢٨٣،ط:محمد على صبيح ـ القاهرة؛ ط: الثانية:١٣٥٧هـ.

تكون الشجاعة ـ على سبيل المثال ـ في المجاز غير الشجاعة في الحقيقة، ولكن الذي يتغير هو الطريق الذي منه نسوق المعنى ونثبته، يحدثنا عن ذلك فيقول:"اعلم أن سبيلك أولا أن تعلم أنْ ليست المزية التي تثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره، والمبالغة التي تدعي لها، في أنفس المعاني التي يقصدُ المتكلم إليها بخبره، ولكنها في طريق إثباته لها وتقريره إياها" .فليستَ فضيلة قولنا"رأيت أسدا" على قولنا" رأيت رجلا هو والأسد سواء في الشجاعة"، إن الأول أفاد زيادة في مساواته للأسد في الشجاعة لم يفدها الثاني، بل هي أن الأول أفاد تأكيداً لإثبات تلك المساواة لم يفدها الثاني،. . .والسبب في ذلك أن الانتقال يكون من الملزوم إلى اللازم، فيكون إثبات المعنى به كدعوى الشيء ببينة، ولا شك أن دعوى الشيء ببينة أبلغ في إثباته من دعواه بلا بينة"١ .

وبذلك استطاع الإمام بعبقريته الفذة أن يضع أيدينا على ما يفعله المجاز في العبارة ، وهذا مما يحمد له هنا، حيث إنه أبى أن يقف حيث وقف من سبقه. وبذلك يكون قد فتح الباب أمام من أتى بعده للبحث عن جمال الأساليب المجازية، وأسباب تأثيرها، فنجد الرازي ت(٦٠٦هـ) يذكر لنا شيئاً من ذلك فيقول:" إذا عبر عن الشيء باللفظ الدال عليه على سبيل الحقيقة، حصل كمال العلم به، فلا تحصل اللذة القوية، أما إذا عبر عنه بلوازمه الخارجية، وعرف لا على سبيل الكمال فتحصل الحالة المذكورة التي هي كالدغدغة النفسانية؛ فلأجل هذا كان التعبير عن المعاني بالعبارات المجازية ألذ من التعبير عنها بالألفاظ الحقيقية" .أي: أن الصورة

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٧١، والإيضاح ١٩٢/٣، وانظر: مفتاح العلوم ص ٤١٣ .

المجازية تحل محل مجموعة من العبارات الحرفية، تتساوى معها في الدلالة، ولكن خصوصية الصورة المجازية تتجلى في أنها لا تقود المتلقي إلى الغرض مباشرة، مثلما تفعل العبارات الحرفية، وإنما تنحرف به عن الغرض، وتحاوره وتداوره بنوع من التمويه، فتبرز له جانباً من المعنى، وتخفي عنه جانباً آخر، حتى تثير شوقه وفضوله، فيقبل المتلقي على تأمل الصورة المجازية واستنباطها، وعندئذ ينكشف له الجانب الخفي من المعنى، ويظهر الغرض كاملا، ويكون من نتائج هذه العملية أنها تتيح للمتلقي نوعا من الدهشة السارة، أو المفاجأة الممتعة"١.

وعندما نلتقي بابن الأثير ت(٦٣٧هـ) نجده يحدثنا عن جمال العبارة المجازية، وأثرها النفسي المباشر في سامعها، وأنها تعمل فيه عمل السحر في الإنسان، فيقول:"وأعجب ما في العبارة المجازية أنها تنقل السامع عن خلقه الطبيعي في بعض الأحوال ، حتى إنها ليسمح بها البخيل، ويشجع بها الجبان، ويحكم بها الطائش المتسرع، ويجد المخاطب بها عند سماعها نشوة كنشوة الخمر، حتى إذا قطع عنه ذلك الكلام أفاق وندم على ما كان منه من: بذل مال،أو ترك عقوبة، أو إقدام على أمر مهول، وهذا فحوى السحر الحلال المستغني عن إلقاء العصا والحبال"٢.

هذا، وبعد تأصيلنا لتلك المقولة،وذكرنا لرأي بعض البلاغيين حولها، والنتيجة التي توصلوا إليها وهي: أن المجاز أبلغ من الحقيقة، نقول:من خلال

---

(١) ينظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي د/ جابر أحمد عصفور ص٣٦٢ ، نقلا عن الفخر الرازي، ط:دار المعارف ، ط: ١٩٨٠م.

(٢) المثل السائر:١/٧٧.

اطلاعنا على كثير من الأساليب المعبرة ، والمؤدية للمعاني المتعددة، والمؤثرة في متلقيها ،على اختلاف ثقافتهم، وتنوع مشاربهم،لا نسلم بتلك النتيجة، أو المقولة المذكورة على إطلاقها؛ لأن فيها هضما للحقيقة، وتهوينا لشأنها ،وإجحافا لدورها في الأداء التعبيري،" أجل، إن المجاز في تعبير بعينه - قد - يكون له من الأثر الفني، والوظيفية التعبيرية، ما به يكون أبلغ وأسمى من الحقيقة، ولكن ذلك لا يبرر إطلاق الحكم بأن المجاز دائما أبلغ من الحقيقة وأجمل منها، فالحقيقة والمجاز هما وسيلتان من وسائل التعبير، تستمد كل منهما بلاغتها وجمالها الفني من مواءمتها في موقعها الخاص للسياق الذي ترد فيه، ومؤدى ذلك أن: الحقيقة في موقعها هي أبلغ وأجمل من المجاز في غير موقعه"١ .

للحقيقة أيضا قيمتها الجمالية التي تتمثل في الواقعية والصدق، والبساطة والقرب، ومن ثم كان للحقيقة موضعها الذي تستعمل فيه، كما أن للمجاز موضعه الذي يستقر فيه ، فالمجاز إذا كان له قيمته الجمالية التي تكمن في التصوير والتخييل، فإن يستقر فيه، فلا يطغى أحدهما على موطن الآخر، ولا يُزاحمه فيه، والذي يحدد التعبير بأيهما وينادي عليه إنما هو: السياق، ومقتضيات الأحوال، حين يتوافر شرط البلاغة في الكلام.

فالبلاغة إذا كان مضمونها يتمثل في: مراعاة الكلام لمقتضى الحال، فإن هناك أحوالا كثيرة تقتضي الاعتماد على الحقيقة البسيطة المجردة عن التصوير، كما إذا كان المتلقون على جانب من السذاجة والبساطة لا

١ـ محاضرات في علم البيان ص ١٧٧ .

يستطيعون معها إدراك ما في المجاز من تخيّل، وليس مفروضاً في الكلام البليغ أن يكون دائماً موجهاً إلى متلقين واعين، وأيضاً كما لو كان المجال يقتضي من الأديب أن يقنع أو يناقش، فإن المجاز في هذا المجال لا يغني شيئاً.

ولو كانت الحقيقة دائماً أبلغ من المجاز، لكان كلام الله - سبحانه - حقيقةً كله، من حيث إنه أبلغ الكلام، ولكننا نرى الحقيقة والمجاز يتجاوران جنباً إلى جنب في القرآن الكريم، يقول الزركشي: في كتابه (البرهان) " لا خلاف في أن كتاب الله - عز وجل - يشتمل على الحقائق، وهي: كل كلام بقي على موضوعه، كالآيات التي لم يتجوز فيها، وهي الآيات الناطقة ظواهرها بوجود الله تعالى وتوحيده، وتنزيهه، والداعية إلى أسمائه وصفاته، كقوله تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الذي لا إلهَ إلا هُوَ عَالمُ الغَيْب وَالشَّهَادَة. . . ﴾ [الحشر/٢٢]، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ التي تورُونَ. . . ﴾ [الواقعة/٧١]، ثم قال: وأكثر ما يأتي من الآي على هذا "١.

كما أن التعبير بالحقيقة لو كان أقل بلاغة من التعبير بالمجاز؛ لخلا القرآن الكريم كلية من الحقيقة، وفضل التعبير بالمجاز في جميع المواقف والأحوال، في تشريعه وتعليمه كما في ترهيبه وترغيبه، ولسار على نمط واحد من التخييل والتأويل؛ لكي يترك أثره الذي لا يتركه التعبير المحدد الدقيق، ولكنّ ذلك ناءٍ عن الصواب، فآيات القرآن العديدة أمام الأبصار،

(١) البرهان للزركشي ٢/٢٥٥ ، وانظر:الصاحبي ص٣٢٠ .

واستخراج الآيات التي عبّر فيها بالحقيقة ولم يتجوّز فيها لا يحصرها عدّ١ .

ونصل من ذلك كله إلى أن الحقيقة لا تقل في قيمتها البلاغية عن المجاز، فالبلاغة هي: مطابقة الكلام لمقتضى الحال، والحال أحياناً يدعو إلى التوضيح أو التحديد أو التقريب، وأحياناً يدعو إلى المبالغة أو التأكيد أو تكفي فيه الإشارة، أو يفي به الرمز، ولكل موقف ما يناسبه من الكلام سواء كان بالحقيقة أو بالمجاز، بحيث لا يغني أحدهما عن الآخر في نقل المعنى، أو رسم الصورة.

فالقول بأن المجاز أبلغ من الحقيقة، لا نرى فيه ما يدعمه حتى نقنع به، فهو قضية تقبل النقاش، وليس مبدأً يجب التسليم به، وما قاله البلغاء قديما: "إن المجاز أبلغ من الحقيقة "، كان ذلك تعبيرا عن فقه استدلالي لا علاقة له بالواقع الذي يمارسه الشعراء والأدباء، ونحن ندعي أن الحقيقة تنافي المجاز، وأن المجاز في تعبيرات كثيرة أمارة على معنى مجرد وراءه، وأن قمة المجاز وهي: الاستعارة المكنية، ينبغي ألا تكون مطمحاً دائما متميزا . ٢

وأرى أن موضوع الأبلغية يجب ألا يرتبط بنوع الأسلوب حقيقي أو مجازي، بقدر ما يرتبط بالمقامات والأغراض التي يُلقى فيها الكلام، فهناك من المقامات التي تكون في حاجة إلى التعبير بالألفاظ الحقيقية الدلالة، القريبة السهلة الواضحة، كما أن هناك من المقامات التي تكون في حاجة إلى التحليق في عالم الخيال بالألفاظ المجازية الجزلة القوية . وهنا يجب على البليغ أن يراعي ذلك كله، يقول الجاحظ، فيما رواه عن صحيفة بشر بن

---

(١) ينظر: القرآن والصورة البيانية د/ عبد القادر حسين ص١٢٥ .

(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها .

المعتمر: "ينبغي على المتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات "١.

ويقول أيضاً: "وكلام الناس في طبقات، كما أن الناس أنفسهم في طبقات، فمن الكلام الجزل والسخيف، والمليح والحسن، والقبيح والسميج، والخفيف والثقيل، وكله عربي، وبكل قد تكلموا، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا"٢.

يؤيد ذلك ويؤكده ما ذكره صاحب الأغاني عن بشار بن برد حين قال له قائل: "إنك لتجيء بالشيء الهجين المتفاوت، قال: وما ذاك؟ قال: قلت: بينما تقول شعرا تثير به النقع، وتخلع به القلوب، مثل قولك:

إذا ما غَضبنا غَضْبةً مُضَرِيَّةً ... هَتَكنا حجابَ الشمس أو تُمْطِرَ الدمَا
إذا ما أعَرْنا سَيِّداً من قبيلةٍ ... ذُرَى منْبَرٍ صلى علينا وسَلَّمَا

تقول:

رَبَابَةُ رَبَّةُ البيت ... تَصُبُّ الخلَّ في الزَّيت
لها عَشْرُ دَجَاجَاتٍ ... ودِيكٌ حَسَنُ الصوتِ

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ٨٧/١ ، تحقيق/ فوزي عطوي .ط: دار صعب – بيروت ط: الأولى :١٩٦٨م.

(٢) المرجع السابق ٩٠/١.

فقال: لكل وجه وموضع، فالقول الأول جدٌ، وهذا قلته في ربابة جاريتي، وأنا لا آكل البيضَ من السوق، وربابة هذه لها عشر دجاجات وديك، فهي تجمع لي البيض وتحفظه عندها، فهذا عندها من قولي أحسن من:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ . . .

عندك ". ١

أرأيت كيف راعى الشاعر المقام فأتى في البيتين الأخيرين بألفاظ سهلة مألوفة، وأسلوب واضح لا التواء فيه ولا غموض؛ لأن المقام يستدعي ذلك، في حين جاءت ألفاظ الأبيات الأولى جزلة فخمة قوية ، محلقًا بها في أفق الخيال " هتكنا حجاب الشمس"؛ لأن مقامها استدعى ذلك أيضا ؟ .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن كثيرا من الباحثين قد أشاروا إلى دور أسلوب الحقيقة في الصورة الفنية ، وأن المقام في كثير من الأحيان يحتاج إليها، والسياق ينادي عليها، وأنها لا تقل في دورها وبلاغتها عن قسيمها المجاز. ٢

---

(١) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني –ج ٣ / ص ١٥٦، ١٥٧ ، باب بعض من نوادر بشار. تحقيق: سمير جابر، طبع ونشر: دار الفكر- بيروت .ط:الثانية.

(٢) راجع: في ذلك على سبيل المثال لا الحصر: الصورة في شعر بشار بن برد د/ عبد الفتاح صالح نافع ص٥٨ ط: دار الفكر . عمان . ط:١٩٨٣م،أبو تمام الطائي حياته وحياة شعره / نجيب محمد البهبيتي ص٢٢٣، ط: دار الثقافة . المغرب ط: ١٤٠٢هـ .١٩٨٢م، الصورة في الشعر العربي د/ علي البطل ص٢٥،ط: دار الأندلس – بيروت، ط: الأولى: ١٩٨٠م، المجاز في البلاغة العربية ص٢٣٤.٢٣٦، الصورة الفنية في الشعر العربي مثال ونقد/ إبراهيم بن عبد الرحمن الغنيم ص١٧٦،ط: الشركة العربية للنشر والتوزيع- القاهرة ط: ١٤١٥هـ – ١٩٩٦م، النقد الأدبي الحديث د/ محمد غنيمي هلال ص٤٣٢،ط: نهضة=

وفي ختام حديثنا حول تلك النقطة: وهي المقارنة بين الحقيقة والمجاز، والمقولة التي حفظت عن البلاغيين في ذلك "أن المجاز أبلغ من الحقيقة"، والتي أطلق عليها بعض الباحثين مسمى المبتورة المضللة١. أقول: إن هناك عبارة ذكرها البلاغيون وهم يدافعون عن وقوع المجاز في القرآن الكريم ،وهذه العبارة أعتقد أنها تعد من الإشارات التي تؤدي من طرف خفي إلى رفع شأن الحقيقة وإعلاء منزلتها، هذه العبارة هي: قولهم:" لو سقط المجاز من القرآن سقط منه شطر الحسن"٢.

ونحن نتساءل هنا: إذا كان المجاز في القرآن قد حاز شطر الحسن والجمال، فأين يذهب شطر الحسن الآخر، ونحن قد أشرنا - من قبل - إلى أن الكلام لا يعدو إما أن يكون حقيقة، وإما أن يكون مجازا ؟، إنه بلا شك يكون من نصيب الحقيقة. وقد سبق أن رأينا الباقلاني يساوي بين المجاز والحقيقة فيما يتعلق بالإعجاز.

***

=مصر،ط:٢٠٠١م، الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني منهجا وتطبيقا د/ أحمد علي دهمان ص١٦٢، ط:مكتبة الأسد- سورية،ط:الثانية:٢٠٠٠م، الصورة الأدبية في القرآن الكريم د/ صلاح الدين عبد التواب ص٢٤،ط: مكتبة لبنان ناشرون،ط: الأولى: ١٩٩٥م. وغير هؤلاء كثيرون. ولولا خشية الإطالة لنقلنا بعضا مما قالوه في شأن بلاغة التصوير عن طريق الحقيقة. وحسبنا أننا أشرنا إلى مواطن حديثهم عنها، فليرجع إليها من شاء.

(١) انظر: فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور د/رجاء عيد ص٧٤،ط: منشأة المعارف - مصر. ط: ١٩٧٩م.

(٢) الإتقان٣/١٠٩.

المبحث الثاني

وهو بعنوان : "الجانب التطبيقي "،وفيه شواهد متنوعة جاء التصوير فيها بأسلوب الحقيقة، وهي كما يلي:

أولاً: شواهد من القرآن الكريم.

ثانيا: شواهد من الحديث النبوي الشريف.

ثالثا: شواهد من الشعر العربي.

أمثلة تطبيقية على أسلوب الحقيقة:

والآن ننتقل إلى الجانب التطبيقي على ما سبق أن قررناه من أن الحقيقة تعد من الأساليب البيانية التي لا يمكن إهمالها .

أقول: إن هناك شواهد وأمثلة كثيرة من الأساليب التعبيرية الفائقة، اعتمدت في تصويرها للمعنى، وإيصاله للمتلقي على أسلوب الحقيقة، وهذه الأمثلة قد وردت في: القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والشعر العربي .أذكر بعضاً منها لأؤكد وأدعم بها ما ذكرته في شأن الحقيقة كطريق من طرق التعبير البليغة المؤثرة، فأقول:

أولا: من القرآن الكريم :

لقد اعتمد البيان القرآني في كثير من المواطن على أسلوب الحقيقة، واتخذه طريقاً في الإفصاح عما يريد بيانه، وإظهاره للعيان، فمن ذلك ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ:

١ـ يقول الله تعالى: وهو يأمرنا بالمحافظة على فريضة الصلاة: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لله قَانِتِينَ . فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فاذكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونوا تَعْلَمُونَ ﴾ ،[البقرة/٢٣٨، ٢٣٩] .

ومعنى القنوت:قيل المراد به: الطاعة، وهو قول ابن عباس، وقيل: القيام، وهو قول ابن عمر، وقيل:السكوت، وهو مروي عن مجاهد، وقيل: الخشوع١ .

(١) انظر:هذه المعاني في تفسير آيات الأحكام للشيخ/محمد علي السايس المجلد ١/١٧١،=

إن البيان القرآني في هاتين الآيتين يصور لنا المعنى المطلوب خير تصوير، وهو إبراز مكانة الصلاة من بين الفرائض، وإبراز منتهى المحافظة عليها، وقد جاء ذلك في ثوب الحقيقة بألفاظ مستعملة في مواضعها، وهذه الألفاظ تتعاون فيما بينها لإخراج هذا المعنى على أكمل وجه ،انظر إلى قوله: ﴿ حَافظوا ﴾ ، ومجيئها على صِيغة "فاعل"،وهي تتطلب المبالغة في الحفظ، ثم اختيار حرف الجر﴿ عَلَى ﴾ ؛ ليدل على أن حفظ الصلاة يشمل حفظها من جميع النواحي: من طهارة ووضوء، وأداء لها في أوقاتها، ثم الخشوع فيها . . .الخ، ثم مجيء ﴿ الصَّلَوَات ﴾ بلفظ الجمع دون لفظ المفرد(الصلاة) حتى لا يفهم من ذلك أن المحافظة تكون على صلاة بعينها، وإنما تعم جميع الصلوات فرضا كانت أم نفلاً،ثم انظر إلى التخصيص بعد العام: ﴿ وَالصَّلاة الوُسْطَى ﴾ ؛ ليطلب الحفاظ عليها مرة ثانية، والبيان القرآني لم يعين تلك الصلاة الوسطى قاصداً إلى ذلك حتى يُجتهد في المحافظة عليها كلها، وكأنه بذلك قد أمر بالمحافظة على الصلاة كلها مرتين، أما الاجتهاد في تعيين الصلاة الوسطى فلا يعوّل عليه،ثم يأتي ختام الآية الأولى بقوله: ﴿ وَقومُوا لله قَانتِينَ ﴾ ؛ لأن المحافظة على الصلاة تتطلب الخشوع فيها ؛ فالخشوع هو روح الصلاة.

ثم إن البيان القرآني في الآية الأولى ، قد يفهم منه أن المحافظة على

= تحقيق/ناجي إبراهيم سويدان. ط: المكتبة العصرية - بيروت ،ط: الأولى:١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م. هذا، ورجح المؤلف المعنى الذي ورد عن مجاهد وهو:السكوت، استنادا إلى ما جاء في الصحيح:عن زيد بن أرقم قال: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت هذه الآية: ﴿ وَقومُوا لله قَانتِينَ ﴾ فأمرنا بالسكوت". وإن كان معنى الخشوع أعم.

الصلاة إنما يكون في حالة الأمن فقط، أما في حالة الخوف فلا يحافظ عليها، فجاءت الآية الثانية لتزيل هذا اللبس، وتؤكد على أن أمر المحافظة على الصلاة ينبغي أن يكون على أي وضع كان: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ ، إن مجئ قوله: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ بعد الأمر بالمحافظة عليها يدل على المحافظة عليها أيضاً في حالة الخوف،ولكن يلاحظ أنه في هذه الحالة - حالة الخوف - فإن المحافظة عليها قد يخدشها عدم الطمأنينة ،ولذا عبّر(بإن) لتدل على أن الخوف الذي يتطلب عدم الطمأنينة هو أمر طارئ،ومع أنه حالة طارئة إلا أنه أمر بالمحافظة على الصلاة في هذه الحالة أيضا التي هي مظنة لضياع الصلاة أو التقصير فيها، وجواب ﴿فَإِنْ﴾ يدل على المحافظة على الصلاة أيضا؛ إذ التقدير:"وإن خفتم فصلوا رجالا أو ركبانا"، ونلمح من تقديم ﴿ فَرِجَالًا ﴾ على ﴿ رُكْبَانًا ﴾ أن الراجل - القائم على القدمين، أو الواقف على الأرض - لاشك أنه أقدر على المحافظة على هيئة الصلاة والخشوع فيها من الراكب، وأن الركوب ينبغي أن يكون طارئا ،ولا يكون هو الأصلي، وإنما يلجـأ إليه عند الحاجـة أو الضرورة ﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ أي: فإذا تحقق لكم الأمن رجعتم إلى الأصل في أداء الصلاة وهي حالة" الأمن"،وعندئذ ينبغي عليكم أن تعودوا إلى المحافظة على الصلوات وتأديتها على خير وجه، مع العلم أنه يغتفر ما وقع فيها من تقصير في حالة الخوف، أما في حالة الأمن فينبغي أن تؤدى الصلاة مستوفية الأركان والشروط، والطمأنينة والخشوع إلى غير ذلك.

إن ألفاظ الآيتين الكريمتين كلها ألفاظ حقيقية يأخذ بعضها بحجز بعض لتصوير منتهى المحافظة على جميع الصلوات ، في جميع الأوقات، حتى

في الوقت الذي هو مظنة لضياع الصلاة "وقت الخوف"، لقد برز ذلك في عدة أمور،هي أولاً:الأمر بالمحافظة على الصلوات كلها .

ثانياً:تخصيص الصلاة الوسطى.

ثالثاً:عطف قوله: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ على قوله: ﴿حَافِظُوا﴾ .

رابعاً:الأمر بالمحافظة على الصلاة في حالة الخوف.

كل هذه الأمور وغيرها تعاونت على إبراز المعنى وإخراجه على أكمل وجه، وفي أحسن صورة.

٢- يقول عز وجل: وهو يأمرنا بالتزام أوامره في توزيع الميراث : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ،[النساء/١١].

الوصية هي: التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترنا بوعظ، مأخوذة من قولهم:أرض واصية أي: متصلة النبات(١)

إن هذه الآية الكريمة باعتبار أنها تبين لنا حكماً من الأحكام الشرعية، قد جاءت ألفاظها مستعملة في مواضعها الأصلية، وصورت

---

(١) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني ٧٢٣/٢ .مادة(وصى) .

المعنى المراد تصويراً دقيقاً مؤثراً . وإذا أردت التدليل على ذلك؛ فانظر إلى قوله: ﴿يُوصيكمُ اللهُ﴾ إن لفظ الوصية والإيصاء يدل على العناية والاهتمام بالموصى به، وخاصة إذا كان الموصي هو ﴿اللهُ﴾ عز وجل، وهذا يدل على الاهتمام بشأن الأولاد، ثم اختيار حرف الجر ﴿في﴾ دون (الباء) مثلا؛ وذلك للدلالة على أن تكون الوصية من الآباء محاطة بالأولاد إحاطة الظرف بالمظروف، ثم قال: ﴿أَوْلادكُمْ﴾ ولم يقل (أبناءكم)، وفي ذلك إشعار بكمال الشفقة والعطف، ثم إضافة لفظ "الأولاد" إلى "الموصين"، وهي إضافة تفيد التخصيص، أي: وهم أبناؤكم تخصيصا، ثم التعبير بلفظ (الذكر)، واختياره ليكون مقابلاً (للأنثى)، وكونه ذكراً ينبغي أن يكون حقه ضعف حق الأنثى صغيراً كان أم كبيرا، وقال: ﴿للذكر مثل حَظ الأنثيَيْن﴾، ولم يقل: (للأنثى نصف حظ الذكر)؛ وذلك للاهتمام بشأن الأنثى، وبيان مكانتها؛ حيث جعل نصيبها هو الأصل الذي يقاس عليه حق الذكر، وفي هذا تأكيد على استحقاقها للميراث الذي كانت تحرم منه في المجتمع الجاهلي، ثم انظر بعد ذلك إلى الصياغة الشرطية، ومجئ توزيع الأنصبة في قالب الجملة الشرطية؛ وذلك للدلالة على شدة الالتزام بهذه الأمور وتحديدها وتفصيلها بذكر فعل الشرط وجوابه، ثم انظر إلى المغزى من تقديم: (الوصية) على (الدين) ؛ حيث إن في ذلك حث على الاهتمام بشأنها؛ لأنه قد يقع فيها التقصير، ويتهاون في أمرها، ولأن الدين له ما يطالب به ويطلبه، لكن الوصية ليس لها ذلك، ثم انظر إلى الدقة في التعبير في قوله في نهاية الآية ﴿آباؤُكُمْ وَأَبنَاؤُكُمْ﴾ ، فقد جاء التعبير هنا بلفظ الأبناء وفي أول الآية جاء بلفظ الأولاد؛ وذلك ليقابل كل لفظ بما يناسبه، فلفظ الأولاد يقابل لفظ الوالدين، ولفظ الآباء يقابله الأبناء،

ثم جاء بالعلة التي قد تدفع إلى التفضيل بين الأبناء وهي تحقق المنفعة فنفاها: ﴿لا تدرُونَ أيُّهُمْ أقربُ لكُمْ نفعًا﴾ ، ثم قال: ﴿ فريضة من الله﴾ ، للدلالة على أن هذا التوزيع شيء يجب الالتزام به؛لأنه فرض تولى الله عز وجل توزيعه بنفسه، ولم يتركه لملك مقرّب، ولا لنبي مرسل،ثم انظر أخيرا إلى ختام الآية بالفاصلة: ﴿إنَّ اللهَ كانَ عَليمًا حَكيمًا﴾ ؛حيث إن توزيع هذه الحقوق يقتضي علما وحكمة، وحتى لا يحتكم الإنسان في توزيع هذه الأنصبة إلى هواه، فالله عليم حكيم بما يقوم به من تنفيذ الأوامر أو مخالفتها .

إن ألفاظ هذه الآية كل لفظ فيها مستعمل في معناه الحقيقي، ومع ذلك أبرزت لنا المعنى المراد وصورته في أتم صورة وأكملها ،وهو الاهتمام بشأن الأولاد، ومراعاة جانب العدل في توزيع الحقوق، وإعطاء كل ذي حق حقه، والالتزام بأوامر الله عز وجل في ذلك .إن التفصيل في الأحكام، وتوزيع الحقوق، وتحديد الأنصبة،لابد أن يكون بلفظ الحقيقة فهي الأحق بذلك، ولا يصح فيها المجاز؛لأنه يحتمل التأويل،وخير دليل على ذلك ألفاظ الطلاق غير الصريحة فإنها تحتمل أكثر من رأي ، بخلاف الألفاظ الصريحة، فهي لا تحتمل إلا رأيا واحدا وهو:وقوع الطلاق فقط. إن آيات الأحكام باعتبار أنها خاصة بالأحكام وهي تتسم بالدقة والوضوح،فلابد أن يكون تصويرها عن طريق الحقيقة إلا ما ندر منها .

٣. يقول تعالى: وهو يصور لنا لونا من ألوان العذاب الشديد ، الذي أعده سبحانه وتعالى للمجرمين الظالمين في هذا اليوم العظيم، يوم القيامة :
﴿وتَرَى المُجْرِمِينَ يَوْمَئذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأصْفادِ . سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ

وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ ،[إبراهيم/٤٩، ٥٠] .

الاقتران: كالازدواج في كونه اجتماع شيئين أو أشياء في معنى من المعاني، ويقال: قرنت البعير بالبعير: جمعت بينهما، ويسمى الحبل الذي يشد به قرنا، فالمراد: وضع اثنين في قَرْن، أي:في حبل.والأصفاد: جمع صفاد بوزن كتاب: وهو القيد والغل، والأصفاد: الأغلال.والسرابيل: جمع سِربال وهو: القميص، من أي جنس كان، أو هو كل ما لُبس. والقطران: هو ما يتقطر من الهناء،وهو عبارة عن دهن من تركيب١ كيماوي قديم عند البشر، وهو أسود منتن يسرع فيه

اشتعال النار٢ .

إن البيان القرآني في هاتين الآيتين نجده يصور لنا مشهدا من مشاهد يوم القيامة، هذا المشهد هو لون من ألوان العذاب الحسي والمعنوي الذي ينتظر هؤلاء المجرمين،وقد برز هذا المشهد في صورة محسوسة مليئة بالحياة

---

(١) وهذا التركيب يصنع من:إغلاء شَجر الأرز وشجر السرو وشجر الأُبهُل:بضم الهمزة والهاء وبينهما موحدة ساكنة، وهو شجر من فصيلة العرعر. ومن شجر العرعر،وطريقة تصنعيه تكون: بأن تقطع الأخشاب وتجعل في قبة مبنية على بلاط سَوِي، وفي القبة قناة إلى خارج. وتوقد النار حول تلك الأخشاب فتصعد الأبخرة منها، ويسري ماء البخار في القناة، فتصبّ في إناء آخر موضوع تحت القناة، فيتجمّع منه ماء أسود يعلوه زبد خاثر أسود. فالماء يُعرف بالسائل، والزَّبَد يُعرف بالبرقي . وتداوي به الإبل الجربى، فيحرق القطران:الجرب بما فيه من الحدة الشديدة، وقد تصل حرارته إلى الجوف.ينظر:تفسير أبي السعود مجلد٢/جزء/٥ ص٦١،والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور١٣/٢٥٢ .

(٢) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني. مواد:(قرن٢/٣٥٢)، (صفد ٢/٢٦)، (سرب ١/٦٤٦)، (قطر٢/٣٧٠)، وانظر: لسان العرب المواد نفسها .

والحركة، بالرغم من أن كل لفظ من ألفاظهما مستخدم في معناه الحقيقي، لكنها تتآزر فيما بينها في رسم تلك الصورة الحسية البالغة الدلالة على مدى العذاب الذي أعدّ لهؤلاء المجرمين يوم القيامة. "فها نحن أولاء نراهم وقد كُبّلوا بالسلاسل والقيود، وقد أحدَقتْ بهم النار من كل جانب لتذيقهم أقسى العذاب. ولنتأمل كيف وُظفت تلك الألفاظ " الحقيقية الدلالة" في الإيحاء بما سيقت تلك الصورة الفنية لتصويره"١.

انظر- على سبيل المثال - إلى قوله عز وجل: ﴿ وَتَرَى ﴾ كيف جاء بصيغة المضارع مع أنه معطوف على الفعل الماضي في الآية السابقة: ﴿ وَبَرَزُوا لله جَمِيعًا ﴾ [إبراهيم/٤٨] ؟وذلك لاستحضار صورتهم في هذا العذاب وكأنه يشاهد الآن، أو للدلالة على الاستمرار، ثم تأمل حديثه عنهم، ووصفه لهم بصفة الإجرام: ﴿ الْمُجْرِمِينَ ﴾، مع أن السياق هنا يتحدث عن الظالمين: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ [إبراهيم/٤٢]، ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ [إبراهيم/٤٥]،فلم يقل مثلا " وترى الظالمين أو الكافرين"؛ وذلك للدلالة على أن هؤلاء القوم بلغ بهم الأمر إلى أنهم تجاوزوا كل حدود الظلم أو الكفر، فجاء وصف الإجرام، ليدل على أنهم جمعوا مع الظلم أمورًا أخرى كالتعالي والتطاول والاستكبار، إلى درجة أنهم شككوا في وجود الله عز وجل: ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ. قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[إبراهيم/٩، ١٠] ﴿ وَبَرَزُوا لله جَمِيعًا فَقَالَ

---

(١) محاضرات في علم البيان ص١٧٩.

الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ ، [إبراهيم/٢١] ، ومن ثم جاء وصفهم بالإجرام ؛ لإفادة العموم والمبالغة في ارتكابهم لهذه الأمور،كما أن هذا الوصف يعد أشنع وأقبح من غيره، وهذا يتناسب مع كثرة إجرامهم وتنوعه.

"ثم تأمل قوله: ﴿ سرابيلهم من قطران ﴾ ، كيف يدل التضعيف في اللفظة الأولى على متانة الأصفاد، وإحكام التقييد والتكبيل، ثم دلالة تلك اللفظة: ﴿ مُقَرَّنِينَ ﴾ على أن تلك ﴿ الأَصْفَاد ﴾ الوثيقة ليست لكل شخص من هؤلاء المجرمين على حده، بل إنها تجمع كل شبْه منهم إلى شبيهه في الإجرام والكفر، فنحن - إذن - إزاء جماعات مكبّلة، تتصارع حركات أفرادها فتتنافر أو تتصادم من أجل الخلاص حيث لا خلاص.

ثم دلالة إيثار حرف الجر ﴿ في ﴾ دون (الباء) مثلا، فنحن معها نتمثل صورة هؤلاء المجرمين وقد أحاطت بهم الأصفاد من كل جانب، كما يحيط الظرف بما يحويه.

ثم نتأمل قوله جل شأنه : ﴿ سرابيلهم من قطران ﴾ ،أي:قمصانهم التي يلبسونها، تجعل النار تصل إلى أجسادهم في سرعة بالغة، وتحيط بهم من كل ناحية،خاصة أنها من قطران، ولكن لا شك أن للفظة (سربال) بتشكيلها الصوتي لها إيحاؤها بكثافة المادة المصنوع منها وغلظها، الأمر الذي يجعل قبولها للاشتعال أشد وأسرع، فكيف نتخيل - إذن - صورة هؤلاء المجرمين، وقد أحاط بجسد كل منهم لا سربال واحد، ولكن "سرابيل عديدة"، وكانت - فضلا عن ذلك - من "القطران"، تلك المادة الحارقة التي لا مثيل لها في سرعة الاشتعال؟ .إن القطران :. وهو دهن

أسود منتن يسرع فيه اشتعال النار" يُطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسراويل؛ ليجتمع عليهم الألوان الأربعة من العذاب: لذع القطران وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الموحش، ونتن الريح. على أن التفاوت بينه وبين ما نشاهده وبين النارين لا يكاد يقادر قدره، فكأن ما نشاهده منهما أسماء مسمياتها في الآخرة. وجعلت سرابيلهم من قطران؛ لأنه شديد الحرارة فيؤلم الجلدَ الواقعَ هو عليه، فهو لباسهم قبل دخول النار ابتداء بالعذاب حتى يقعوا في النار"١ .

ثم لنتأمل ـ أخيراً ـ قوله عز وجل: ﴿وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ ،فنتمثل مع الفعل ﴿وَتَغْشَى﴾ صورة النار وقد غطت وجوه هؤلاء القوم، فلم تدع ذرة من ذراتها إلا ولفحتها بلهيبها الحارق، ثم تخصيص "الوجوه" بالحكم المذكور مع عمومه لسائر أعضائهم، ثم تقديمها على الفاعل في تلك العبارة ﴿النَّارُ﴾ ؛ وذلك لكونها أعز الأعضاء الظاهرة وأشرفها ،كما أن الفؤاد أشرف الأعضاء الباطنة، ومحل المعرفة،ولكونها أيضاً مجمع المشاعر والحواس التي خلقت لإدراك الحق، وقد أعرضوا عنه، ولم يستعملوها في تدبيره، وربما خصت من بين الأعضاء الأخرى؛ لخلوها من القطران المغني عن ذكر غشيان النار لها، ولعل تخليتها عنه ليتعارفوا عند انكشاف اللهب أحياناً ويتضاعف عذابهم بالخزي على رءوس الأشهاد. كما يفيد تقديم لفظ" الوجوه" أيضاً على أن الوجه هو أول ما يتعرض للنار، ثم يكون سريانها السريع منه إلى باقي أعضاء الجسد، ولهذا دلالته على الذلة

---

(١) ينظر: تفسير الكشاف٢/٥٣١، تحقيق/عبد الرازق المهدي. ط: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت،ط: الثانية ط:١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م، والتحرير والتنوير ١٣/٢٥٣.

والهوان من جهة، وعدالة الجزاء من جهة أخرى. فالوجه - كما أشرنا من قبل - هو أشرف أعضاء الجسد ، وهو كذلك مركز معظم الحواس التي تعطلت لدى هؤلاء القوم، فانساقوا بها في طريق الإجرام والكفر، وانغمسوا في غواية الإلحاد والضلال، إذن فالعذاب هنا عذاب حسي ومعنوي، وذلك يتمثل في غشيان النار لوجوههم، وفي تقرينهم في الأصفاد، وهذه سمة الإهانة والاحتقار ١.

إن أسلوب الحقيقة هنا قد أدى دوره في تشكيل صورة هذا المشهد لهؤلاء القوم، وصوّره أعظم تصوير ،بالرغم من أن ألفاظ الآيتين لا نكاد نجد من بينها لفظة قد استخدمت في غير معناها الحقيقي. إن تصوير هذا المشهد قد أُلبس ثوب الحقيقة، وكانت جديرة به ،ونهضت بأداء المعنى أبلغ ما يكون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف/٤٠]، وقوله عز وجل: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف/١٠٩].

فسوف يتأكد لديك أن جمال الصورة الأدبية لا يتوقف على صور

---

(١) ينظر: محاضرات في علم البيان ص١٧٩، بتصرف. وانظر: مشاهد القيامة في القرآن لسيد قطب ص١٦٧، ط: دار الشروق - بيروت، وتفسير الكشاف ٥٣١/٢، وتفسير أبي السعود ٦١/٥، والتحرير والتنوير ٢٥٣/١٣.

الخيال المختلفة حتى نحكم بجمالها، فقد تكون الصورة خالية ـ أو تكاد ـ من هذه الصور الخيالية ، ومع ذلك فهي جميلة رائعة كل الروعة والجمال، ومصورة معبرة أتم وأدق ما يكون التصوير والتعبير.

ففي الآية الأولى تطالعك هذه الصورة المشعة الموحية المعبرة التي تثير الخيال لديك، وتجعله عاكفاً على تمثل تلك الحركة العجيبة التي لا تتم ولا تقف ما تابعها الخيال، هذه الحركة هي ـ ولوج الجمل في سم الخياط ـ الموعد المضروب لدخول الكافرين الجنة . فهذه صورة ليس فيها استعارة ولا كناية ولا تشبيه، ولكنها فقط تعبر عن معنى المستحيل غيْبًا بصورة المستحيل حسًّا ومُشاهدةً.

ونلاحظ الصورة في الآية الثانية فنجدها أيضاً خالية من الاستعارة والكناية والتشبيه، ومع ذلك فإننا نراها صورة رائعة معبرة، تصور حركة الامتداد بماء البحر لكتابة كلمات الله في غير ما توقف ولا انتهاء، إلى أن ينتهي البحر بالنفاد، وما نفدت كلمات الله، ثم يظل الخيال يتابع الصورة والبحر يُمَدُّ بمثله فينفد ـ كذلك ـ وما نفدت كلمات الله أيضا : ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾.(١)

ثانياً: من الحديث النبوي الشريف:

هناك أيضاً أحاديث نبوية كثيرة أُلبست ثوب الحقيقة، ومع ذلك صورت المعنى وأبرزته أعظم ما يكون التصوير،مما يدفعنا إلى القول بأن

---

(١) ينظر: التصوير الفني لسيد قطب ص٧٦،٧٥ . ط:دار الشروق بيروت . ط: ١٩٨٨م، وانظر: الصورة الأدبية في القرآن الكريم د/صلاح الدين عبد التواب ص٢٤ بتصرف.

الصور الحقيقية فيه قد حازت قصب السبق، وتفوقت على الصور نفسها التي جاءت في الأدب؛ حيث إنه خلا من الإبهام والتعقيد، والإسفاف في الكلام،والتكلف والغموض،والإغراق في الخيال حتى يشبه الأوهام، ومن ثم فإن "الحديث النبوي يترفع عما يتسقط فيه منهج الصورة الحقيقية في الأدب، وذلك يكون تبعًا للمحتوى الفكري الغيبي الذي تحمله صوره الحقيقية، فنقع على نماذج رائعة عجائبية خالية من المجاز، بل لا مجال للمجاز فيها؛ لأنها حقائق لا تحتاج إلى تلوين"١.

وإليك بعضاً من تلك الأحاديث، التي نوردها على جهة التمثيل، منها:

١ـ الحديث الذي رواه أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ والذي يقول فيه:"جاء ثلاث رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه و سلم يسألون عن عبادة النبي ـ صلى الله عليه و سلم ـ فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها، فقالوا: أين نحن من النبي ـ صلى الله عليه و سلم ـ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أمَّا أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا. فجاء رسول الله ـ صلى الله عليه و سلم ـ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أمَا والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن

---

(١) الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف د/ أحمد زكريا ياسوف ص٣٨٥،ط: دار المكتبي ـ سورية،ط: الثانية:١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

رغب عن سنتي فليس مني)١.

ومعنى" تقالوها": أي استقلوها،أي : رأى كل واحد منهم أنها قليلة.

وبالتأمل في ألفاظ هذا الحديث الشريف يتبيّن لنا أنها استعملت في معناها الحقيقي، ومع ذلك فقد صورت المعنى المراد أدق تصوير، إنها صورت هذا المشهد الحسي لهؤلاء الثلاثة من الصحابة الأخيار - رضي الله عنهم أجمعين - ،وبينت مدى حرصهم على طاعتهم لخالقهم، وذلك بالجد فيها، والإكثار منها، والمبالغة فيها،بل والإسراف فيها إلى درجة الزهد في زخارف الدنيا ومتاعها.

فهذه الألفاظ الحقيقية الدلالة صورت وجهة نظر كل واحد من الثلاثة في العبادة الصحيحة، وقد برز في هذه الوجهة مدى التشدد والمغالاة في تلك الطاعة؛ حيث إنهم فهموا أن العبادة لله عز وجل - حق العبادة - هي في الانقطاع عن الدنيا،واجتناب المبيحات، وهذا مما يناقض الطبيعة البشرية؛ لأن فيها تلبية لجانب الروح دون الجسد، فجاء كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - ليصحح هذا الفهم الخاطئ للعبادة، ويزيل عنه أي لبس، بهذه العبارات التفصيلية الدقيقة قائلاً:"أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر،وأصلي وأرقد،وأتزوج النساء"، فجمع لهم - صلى

---

(١) صحيح البخاري٥/ ١٩٤٩، باب الترغيب في النكاح، حديث رقم/٤٧٧٦ ،تحقيق د/ مصطفى ديب البغا. ط: دار ابن كثير - اليمامة - بيروت.ط: الثالثة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م. والحديث في صحيح مسلم أيضا: أخرجه في كتاب النكاح، باب: استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، برقم/١٤٠١.

الله عليه وسلم ـ فيها بين تلبية دواعي الروح ومتطلبات الجسد ،وجاء هذا رداً على ما ورد على لسانهم عندما قال أحدهم: "أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر:أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر:أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا" ،وانظر إلى مدى الدقة في التعبير؛ حيث أكد المصلي ومعتزل النساء كلامهما بالتأبيد "أبدا"،أما الذي اختار الصيام فلم يؤكده بقوله"أبدا" كما جاء عند صاحبيه؛ وذلك لأنه لا بد له من الفطر في: الليل، وأيام العيدين، وأيام التشريق.

إن النهي قد ورد عن التشدد في كل شيء وخاصة في العبادة؛"لأن المشدّد لا يأمن من الملل، بخلاف المقتصد فإنه أمكن لاستمراره، وخير العمل ما داوم عليه صاحبه، وقد أرشد إلى ذلك في قوله في الحديث الآخر:"المنبت لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى"١ .

ثم أكد لهم ولغيرهم ضرورة التمسك بهذا الفهم الصحيح للعبادة، والبعد عن المغالاة بهذا التحذير الشديد الذي جاء في ختام هذا البيان النبوي"فمن رغب عن سنتي فليس مني"أي: من ترك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فليس مني،"وهو في هذا يعرّض بطريق الرهبانية، فإنهم هم الذين ابتدعوا التشديد كما وصفهم الله تعالى، وقد عابهم بأنهم ما وفوه بما التزموه، أما طريقة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهي الحنفية السمحة، فيفطر؛ ليتقوى على الصوم، وينام؛ ليتقوى على القيام، ويتزوج؛ لكسر

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني٩/١٠٥. باب الترغيب في النكاح، حديث رقم / ٤٧٧٦ .ط: دار المعرفة ـ بيروت.ط: ١٣٧٩هـ.

الشهوة وإعفاف النفس، وتكثير النسل" .١

فالحديث بألفاظه الحقيقية صور لنا الطريق الصحيح ، والمنهج السليم الذي يجب علينا أن نسلكه في عبادتنا لله عز وجل، هذا المنهج يتمثل في الوسطية الذي ليس فيها مغالاة في اجتناب الأمور المباحة مطلقا ، ولا فعلها كذلك إلى حد المبالغة والإسراف؛ لأن" ملازمة استعمال الطيبات تفضي إلى الترفه والبطر، ولا يأمن ـ الإنسان ـ من الوقوع في الشبهات؛ لأن من اعتاد ذلك قد لا يجده أحياناً ، فلا يستطيع الانتقال عنه فيقع في المحظور. كما أن منع تناول ذلك أحياناً يفضي إلى التنطع المنهي عنه. . .. وأيضا ـ إن الأخذ بالتشديد في العبادة يفضي إلى الملل القاطع لأصلها ، وملازمة الاقتصار على الفرائض مثلاً وترك التنفل؛ يفضي إلى إيثار البطالة وعدم النشاط إلى العبادة، وخير الأمور الوسط" ٢ .

أرأيت كيف جاءت ألفاظ هذا البيان النبوي الشريف خالية من المجاز، وسيقت في قالب الحقيقة،وأدت دورها في تصوير المعنى وبيانه، وجاءت معبرة أعظم تعبير؟ ! .

٢ـ الحديث الذي رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ :" أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخل المسجد ، فدخل رجل فصلى، ثم جاء فسلم على النبي ـ صلى الله عليه و سلم ـ فردّ عليه السلام، فقال: ارجع فصل فإنك لم تصل، فرجع الرجل فصلى كما[كان]صلى، ثم جاء

---

(١) المرجع السابق: الصفحة نفسها .

(٢) المرجع السابق٩/١٠٦ .

إلى النبي ـ صلى الله عليه و سلم ـ فسلّم[عليه] فردّ عليه[السلام]، فقال: له[رسول الله ـ صلى الله عليه و سلم ـ]، ارجع فصل فإنك لم تصل، حتى فعل ذلك ثلاث مرات، فقال[له] الرجل: والذي بعثك بالحق، ما أحسن غير هذا، فعلمني، فقال: إذا قمتَ إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ بما تيسّر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعا، ثم ارفع حتى تعتدل قائما، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا، وافعل ذلك في صلاتك كلها"١.

بالنظر في ألفاظ هذا الحديث نجد أنها جاءت في أسلوب الحقيقة؛لأنها في مقام التعليم والتوجيه، وتوضيح حقيقة الصلاة الصحيحة لهذا الرجل الذي يجهلها ولا يعرفها، فكان المقتضى والمناسب لهذا المقام أن يعبر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في خطابه لهذا الرجل بأسلوب الحقيقة؛ لكي يفهم عنه ما يريد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيانه له، ولذلك بناه على أسلوب التفصيل، وتوضيح الأركان التي ينبغي القيام بها في أداء الصلاة حتى تكون صحيحة كاملة،فالحديث كله بيان وتوضيح لتلك الأركان، بطريقة:افعل كذا حتى يتحقق كذا،"اركع حتى تطمئن راكعا، ثم ارفع حتى تعتدل قائما. . .الخ".

ثم انظر إلى طريقة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في معالجة الخطأ

---

(١) انظر: سنن الترمذي ١٠٣/٢ ، باب: ما جاء في وصف الصلاة، حديث رقم/٣٠٣ .تحقيق/ أحمد محمد شاكر وآخرون، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت. وعلق الترمذي على الحديث بأنه: حديث حسن صحيح، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

الذي وقع فيه هذا الرجل الذي صلى صلاة خفيفة ولم يتم ركوعها ولا سجودها، وإنما نقرها كما ينقر الديك. إنه لم يعلمه الكيفية الصحيحة لأداء الصلاة من أول مرة أخطأ فيها ولم يبدأ بتعليمه، بل انتظر حتى طلب الرجل نفسه ذلك، وفي هذه الحالة تتثبت المعلومة لديه وترسخ في ذهنه، ومن ثم"قيل: لمَ سكت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن تعليمه أولاً حتى افتقر إلى المراجعة كرة بعد أخرى؟ وأجيب: لأن الرجل لما لم يستكشف الحال مغترا بما عنده سكت عن تعليمه زجرا له وإرشادا إلى أنه ينبغي أن يستكشف ما استبهم عليه، فلما طلب كشفَ الحال بيّنه بحسن المقال، وأيضاً أراد بهذا الانتظار استدراجه بفعل ما جهله مرات لاحتمال أن يكون فعله ناسيا أو غافلاً فيتذكر فيفعله من غير تعليم، فهو من باب تحقق الخطأ، أو بأنه لم يُعلمه أولاً ليكون أبلغ في تعريفه وتعريف غيره، ولتفخيم الأمر وتعظيمه عليه. كما أن في عدم المبادرة إلى التعليم مصلحة للمتعلم لا سيما مع عدم خوف فواتها؛ حيث إنه سيكون هناك زيادة في قبوله لِمَا يُلقى عليه بعد تكرار فعله، واستجماع نفسه، وتوجه سؤاله"[١].

إن الحديث هنا ـ كما رأيت ـ صيغ كله في ثوب الحقيقة؛ لأن المقام مقام تعليم وتوجيه، ولا مجال للمجاز فيه.

٣. الحديث الذي رواه أبو ذر الغفاري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه و سلم ـ: **" إني أرَى ما لا ترَوْن، وأسمعُ ما لا تسمعون، أطتِ السماءُ، وحُقَّ لها أن تئط، ما فيها موضعُ أربَع أصابعَ**

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي لمحمد بن عبد الرحيم المباركفوري٢/١٧٧، باب ما جاء في وصف الصلاة حديث رقم ٣٠٢ ،ط: دار الكتب العلمية ـ بيروت.

إلا وملكٌ واضعٌ جبهتَه ساجدًا،والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيرًا، ولما تلذذتم بالنساء على الفُرُش، ولخرجتم إلى الصُّعُدَات تجأرون إلى الله". فقال أبو ذر: لوددت أني كنت شجرة تعضد١.

وأطّت، وتَئط،والأطيط:صوت الرحل والقَتَب وشبههما، الصُعُدات: الطرقات،وقيل المَراد بها هنا: البراري والصحارى، تجأرون: تتضرعون إليه بالدعاء ليدفع عنكم البلاء. تعْضد: تقطع وتستأصل،جاء في لسان العرب:"عضدَ الشجرَ يَعْضدُه بالكسر عَضدا فهو مَعْضود وعَضيدٌ، والعَضدُ ما عُضدَ من الشجَر أو قطع بمنزلة المعضود، وفي حديث تحريم المدينة" نهى أن يُعْضدَ شجرُها أي: يقطع ، العَضِيدُ والعَضدُ: ما قطع من الشجر"٢.

إن هذا الحديث من الأحاديث التي تثير الخيال أيما إثارة؛ إذ إنه يتعلق بأمر غيبي، والأمور الغيبية تعد مجالاً خصبا لإثارة الخيال، وإعطائه مساحة كبيرة للتفكير والتدبر، إن ألفاظ هذا البيان النبوي استعملت في معناها الحقيقي، ووظفت بدلالتها الحقيقية لتصوير تلك المشاهد الغيبية، والتي

---

(١) الحديث رواه الإمام النووي في رياض الصالحين: في باب الخوف رقم/٤١١ص٢٠٢ تحقيق/ جماعة من العلماء. ط: المكتب الإسلامي. بيروت. ط: الأولى:١٤١٢هـ .١٩٩٢م .ورواه الإمام الترمذي في سننه برقم/٢٣١٢ ،باب قول النبي – صلى الله عليه وسلم – لو تعلمون.ج٤/٥٥٦ . وقال عنه: حديث حسن،وقال الألباني: حديث حسن دون قوله:لوددت. . .ورواه الإمام أحمد في مسنده

(٢) ينظر: لسان العرب مادة(عضد) ٣/٢٩٢.

تتمثل في بيان ازدحام السماء بأحد مخلوقات الله عز وجل وهم: الملائكة، ونتيجة لكثرة من في السماء من الملائكة المنقادين العابدين ربهم قد أثقلتها؛ حتى أصدرت أصواتاً كثيفة، ولمَ لا تصدر منها تلك الأصوات الكثيرة وليس فيها مكان خال من ملك قائم أو راكع أو ساجد لله عز وجل،ولذا قال" وأسمع ما لا تسمعون"، ثم انتقل بعد ذلك إلى تصوير مشهد آخر من تلك المشاهد الغيبية، وهو مشهد الخوف من الله عز وجل وما يترتب عليه، إذ "إن الخوف من الله يكون على قدر العلم - بعظمته وجلاله - ﴿ إنمَا يَخشَى اللهَ منْ عبَاده العُلمَاء ﴾ [فاطر/٢٨]، فلو علم الناس ما علم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لازداد خوفهم من الله، ولبكوا كثيرا، ولامتنعوا عن اللذائذ المباحة، ولو أنهم كانوا يعلمون ما يعلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتركوا حياة اللهو والعبث، ولأقبلوا على الله يتضرعون أن يجيرهم من عذابه ويقيهم أهوال يوم القيامة، إنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ **يرى ما لا يرون، ويسمع ما لا يسمعون، ويعلم ما لا يعلمون**"[١].

تأمل كيف ربط البيان النبوي بين أهل السماء وأهل الأرض، فمن في السماء يعبدون ربهم قائمين راكعين ساجدين، وهم ليسوا في حاجة إلى ذلك،أما من في الأرض مع حاجتهم للعبادة والطاعة إلا أنهم مقبلون على الدنيا(**بكثرة الضحك وما يؤدى إليه**)، ومعرضون عن الآخرة(بقلة بكائهم وما يترتب عليه)، إن التمهيد بذكر أهل السماء وما يقومون به،

---

(١) التصوير الفني في الحديث النبوي د/ محمد لطفي الصباغ ص٢٢٣، ط: المكتب الإسلامي ـ بيروت. ط: الأولى: ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.

يُقصد به حث أهل الأرض على الجد والاجتهاد في الطاعة؛لأن الملائكة في السماء على قدر قربهم من ربهم وعلمهم به يسبحونه وله يسجدون.

إن ألفاظ الحديث بدلالتها الحقيقية تبرز لنا المعنى المقصود منه وهو تصوير عظمة الله تعالى، ثم وجوب الخشية منه، وذلك بترجيح جانب الخوف على الرجاء، يؤيد ذلك القسم الذي صدّر به هذا المشهد،(والله) ثم اختياره أداة الشرط(لو)،(لو تعلمون ما أعلم) للربط بين أجزاء الكلام بعضه وبعض، وذلك للدلالة على قلة خوفهم من الله ؛ ومن ثم أقبلوا على الملذات وأكثروا من المبيحات، فكثر ضحكهم وقل بكاؤهم، ولو يعلمون ما علمه الرسول - صلى الله عليه وسلم - من عظم انتقام الله وعقابه لمن يعصيه، وأهوال يوم القيامة وأحوالها،- بداية من الموت وسكراته، ومرورًا بعذاب القبر وويلاته، وانتهاء بعذاب جهنم وحسراته - لتغير حالهم على ما هم عليه،وما ضحكوا من الأصل، وقد عبر عن ذلك بقوله (لضحكتم قليلا) ،إذ القليل هنا" بمعنى العديم على ما يقتضيه السياق؛لأن لو حرف امتناع لامتناع"١. وفي هذا من المبالغة من التخويف من تلك الأهوال ما فيه.

ويلاحظ هنا أن البيان النبوي في انتقائه لتلك العبارات المؤثرة كان مقتفيا فيها أثر البيان القرآني؛ وذلك عندما قال الله تعالى في حق المنافقين: ﴿ فليَضحَكوا قليلاً وَليَبْكوا كثيرًا جَزَاء بِمَا كَانوا يَكسبُونَ ﴾ [التوبة/ ٨٢].

---

(١)فيض القدير لعبد الرءوف المناوي٥/٣١٥ حديث/٧٤٣٦،تحقيق/ماجد الحموي.ط: المكتبة التجارية - القاهرة،ط: الأولى:١٣٥٦هـ.

وبالتأمل في هذا الحديث أيضاً نجد أنه اشتمل "على صورتين صوتيتين: صورة أصوات السماء، وقد ناءت بثقل الملائكة وازدحامهم في السجود ، وليس هناك أعلى من هذا في التعبير عن ـ عظمة ـ الجلالة الإلهية، وفي هذا تقريب أريد به تقرير عظمة الله تعالى، وهي صورة صوتية لا ندرك ماهيتها كما ندرك أصوات البشر.

والصورة الصوتية الثانية: أصوات الداعين، وفي الحديث صورة حقيقية ذات تأثير، وإن كانت محتملة بوساطة أسلوب الشرط، بل إن هذا الاحتمال يثير الخيال، ويحبس الأنفاس من شدة الهلع، فهناك تضاؤل الضحك حتى يكثر البكاء، وهجر الفرش أي تحدي الفناء لأعلى لذة دنيوية، ثم الانطلاق بلهفة ورعب إلى الطرقات، وكأن المقصود ضيق النَفس بعد معرفة العذاب الشديد المنتظر، وأن المؤمنين كالمصدوم الذي يحار ويطلب العون من أي أحد، إنها صدمة نفسية بعد كشف، تخلع أجسادهم من البيوت في أحلى أوقاتها إلى الكون الفسيح، مع صوت شديد جماعي، كما يفيد معنى الجؤار في اللغة،وهو الصوت المرتفع في التضرع والاستغاثة، بل إن غرابة المفردة هنا تلمح إلى غرابة الموقف، وقوتها الصوتية تفي بشدة الحاجة وفظاعة اللحظة"١.

أرأيت كيف يمكن استلهام الجمال من الصور الحقيقية في تلك الأحاديث المثيرة للخيال والحواس من غير وجود مجاز فيها؟ ولكن مع الإشارة إلى أنه ليس من السهل اكتشاف ذلك؛إذ إنه" يحتاج إلى تذوق

---

(١) الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ص٣٨٨.

عميق ورهافة حس؛ لأن وجود الصور الحقيقية غير مقترن بالشفافية، فنحن نجد الصور المجازية طفرة في اللغة، وانحرافا عن المعجمية، وإنشاءً جديدا، في حين تكون الصور الحقيقية المؤثرة عند الكثيرين كغيرها من الكلام المباشر المسرود غير المتمتع بالعاطفة والعمق، وثمة سبب آخر في صعوبة اكتشاف الصور الحقيقية هو أن البحث عن مساحات الخيال المنطلقة من اللاخيالي يعني البحث في فضاء المفردات، ومحتواها الفكري الذي يميزها، وتفردها بدلالات نفسية"١ .

إذن فالتصوير من خلال أسلوب الحقيقة لا يمكن إهماله، ولكن لا بد من التأني والتمهل في استنباطه، وخير شاهد على ذلك ما وجدناه في القرآن الكريم والحديث النبوي من كنوز ثمينة، تلك التي تبهر العقول، وتوقظ النفوس، وتخلع القلوب.

ثالثاً: من الشعر العربي:

إن هناك نماذج من الشعر العربي جاءت بأسلوب الحقيقة ، وبالرغم من ذلك فقد قامت بأداء المعنى وتصويره، أحسن ما يكون،فمن ذلك:

١. تلك الأبيات التي يرثي بها ابن الزيات . وهو من الشعراء القدامى . زوجته، والتي يقول فيها :٢

---

(١) المرجع السابق ص٣٩٢ .

(٢) التصوير البياني د/ حفني شرف ص٨١ . والبَلابل: شدَّة الهم والوَسْواس في الصدر وحديث النفس . لسان العرب

(بلل) .

فهبني استطعت الصبر عنها لأنني جليد فمن للصبر بابن ثمان
ضعيف القوى لا يعرف الصبر حسبة ولا يأتسي بالناس في الحدثان
رأى كل أم وابنها غير أمه يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيدا في الفراش تحثه بلابل قلب دائم الخفقان

فالشاعر في هذه الأبيات يصور مصيبته التي حلّت به على أنها أقوى من أن يتحملها، على الرغم من جلادته وقوة تحمله، ثم صوّر مدى تحسره بوجود هذا الطفل الصغير الذي لا يتحمل الصبر، فهو يأسى له ويتحسر لحاله، ويتألم لفراق أمه وهو لا يقدر على فراقها، كما أنه يبالغ في إظهار ألمه وتوجعه وحسرته على فراق زوجته من خلال ابنه الصغير، وهو حين يصف ولده بأنه ضعيف، كأنه يصف ضعفه هو من خلال ولده هذا، ودلل على ذلك بأنه لا يمكن أن يحتمل؛لأنه لا يعرف الصبر، ولم يبلغ مبلغ الرجال حتى يتأسى بالناس في مصيبته، وهو في تصوير كل ذلك يحاول تصعيد معاني الحسرة والألم والتوجع التي أحاطت به،ثم عندما يرى هذا الصغير كل ابن مع أمه يلازمها، ويرى نفسه وحيداً يعاني الآم الفراق في جنح الليل، وجاء قوله "يبيتان تحت الليل" خاصة، إعلانا عن الوقت الذي يشتد فيه حاجته لأمه، ثم تأمل اختياره للفعل "بات" ولم يقل مثلا" أصبح"للدلالة على تأكيد الحاجة للأم في هذا الوقت،ثم انظر إلى قوله"وبات وحيدا"، وما يعنيه تقييد الفعل"بات" بالحال"وحيدا"،ثم ما تعنيه كلمة"وحيدا"من الانفراد والإحساس بالوحدة والغربة مما يزيد في شدة ألمه، وعظيم حسرته.

ثم تأمل تقييده كلمة"وحيدًا" بقوله"في الفراش"إن هذا يعد تصعيداً

لشدة الألم؛لأنه في الفراش خصوصاً يفترض أنه يكون مع أمه؛إذ الأصل أنه إذا ما أتى الليل أن يكون الطفل الصغير في الفراش مع أمه متلازمان، ثم انظر كيف يكون حال الطفل الذي بات وحيداً في الفراش دون أمه؟إنه بلا شك لا يسكن ولا يهدأ؛ لأنه فقد من يأوي إليه في فراشه، ويسكن إليه بعطفه وحنانه، إنه لا ينام ودائم القلق والاضطراب؛لأنه فقد أنيسه ومصدر عطفه وحنانه،إنها أمه.

بالتأمل في ألفاظ هذه الأبيات نجد أن أغلبها قد استعملت في معانيها الحقيقية، ولكنها مع ذلك تزخر بشتى المعاني التي تدل على حسرة هذا اليتيم، ومدى تفجعه على فقد أمه، وبالتالي يكون أسلوب الحقيقة في هذه الأبيات قد أدى دوره في تصوير أحاسيس الشاعر ومشاعره تجاه زوجته.

٢ـ ومن النماذج التي جاءت فيها الحقيقة أيضاً مصورة لعاطفة الشاعر، قول الخنساء في رثائها لأخيها صخر:١

يذكرني طلوع الشمس صخراً وأذكره لكل مغيب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلتُ نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن أعزّي النفس عنه بالتأسي

من خلال هذه الأبيات يتّضح لنا مدى حزن الخنساء على فراق أخيها صخر، وقد جاءت ألفاظ تلك الأبيات. برغم أنها تخلو من أساليب المجاز. مصوّرة لكل ما تعانيه الخنساء من ألم وحزن، تأمل ـ على سبيل المثال ـ

(١). ديوان الخنساء ص ٨٤. تحقيق / كرم البستاني ط: دار صادر. بيروت. ط:١٩٦٣م.، وص ٢٥٢ تحقيق د/ إبراهيم عوضين. ط: المكتبة الأزهرية للتراث – القاهرة، ط: الأولى: ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

قولها"يذكرني طلوع الشمس"،وقولها"وأذكره لكل مغيب شمس"،وربطها بين طلوع الشمس ومغيبها، وكيف يدل ذلك على استمرارية حزنها وتواصله، وأن صخراً لا يغيب عن خاطرها لحظة،بالإضافة إلى كثرة عطائه وكرمه،ولذا أجاب الأصمعي عندما سئل: لماذا خصت "طلوع الشمس وغروبها دون أثناء النهار"؟ فقال:"لأن وقت الطلوع وقت الركوب إلى الغارات، ووقت الغروب وقت قرى الأضياف، فذكرته في هذين الوقتين مدحا له بأنه يغير على أعدائه، وأنه يقَري أضيافه"١.

ثم انظر إلى قولها" لقتلت نفسي"، وما تدل عليه كلمة"قتلت"على عظم فجيعتها، وأنها مما لا يحيط بها الوصف؛ لأنها ربما يصل بها الأمر - نتيجة لذلك - إلى إنهاء حياتها، وفي هذا التعبير من تجسيد ألم الفراق ما فيه.

ثم تأمل قولها"وما يبكون مثل أخي"، وما يشير إليه هذا التعبير من تفردها في البكاء، وأن بكاءها على أخيها ليس كبكاء الباكين على إخوانهم، وكأن المرثيين ليسوا في طبقة أخيها من حيث الخلال الحميدة، والصفات الكريمة،فهو متفرد في ذلك كله،وكما أن صخراً متفرد في تلك الخلال والصفات فإن الخنساء أيضاً متفردة في بكائها عليه من بين الباكين على إخوانهم،ثم انظر إلى قولها"على إخوانهم"، واختيار كلمة الإخوان خاصة من بين باقي الأقارب لتدل بذلك على أن فجيعتها في أخيها أعظم وأشد،وأنه لا يمكن تعويضه أبداً، وكأنها بذلك تؤكد صدق المقولة التي تقول: إن الزوج موجود، والابن مولود،والأخ مفقود.

---

(١) من ضروب البلاغة والبيان العربي المعجز (الاحتراس) ص٥٢ د/ رفيق حسن الحليمي. مجلة الوعي الإسلامي العدد:(٥٤٥) محرم ١٤٣٢هـ - ديسمبر ٢٠١٠م.

إذن هذه الأبيات تبرز مكانة أخيها صخر، وأنه ليس له نظير يشابهه، ومن ثم يحتاج إلى بكاء متفرد يليق بمكانته، وهذا ما قامت به الألفاظ التي استعملت في معانيها الحقيقية على أكمل وجه.

٣- ومن النماذج التي صورت المعاني بأسلوب الحقيقة، قول حازم القرطاجني:١

والآسُ والريحانُ قد صُفَ وقد ... ألقى عليه كل طاه ما طهى
ولفّ كل خابز مملوكه ... في سعف الدَّوم وأصلاه لظى
من بعد ما أحمى الصفيح تحته ... ثم حثى من فوقه جمرَ الغضى

فالشاعر في هذه الألفاظ الحقيقية الدلالة يصف لنا مشهداً من مشاهد الصيد، الذي قام به مجموعة من الأصدقاء، ثم قيامهم بأكل ما اصطادوه بعد الشوّي،إنه نقل إلينا من خلال تلك الأبيات ما رآه بألفاظ في غاية الجلاء والوضوح،وليس فيها خيال ولا مجاز،فأسلوب الحقيقة هنا قام بدوره في نقل هذا المشهد الذي شاهده الشاعر، ونهض به أفضل ما يكون.

ونكتفي بهذه النماذج المتنوعة من: القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والشعر العربي، في إبراز مكانة أسلوب الحقيقة وقيمتها في التصوير الفني؛ حيث إن هدفنا ليس استقراء الأمثلة أو الشواهد كلها، وإنما التمثيل فقط، وكما يقال: يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

---

(١) قصائد ومقطعات لحازم القرطاجني ص٣١ تحقيق د/ محمد الحبيب ابن الخوجة، ط: الدار التونسية للنشر. تونس. ط: ١٩٧٢. والآس ،والريحان: من أنواع الأشجار. والسَّعف: الورق. الدَّوم: نوع من الشجر يشبه النخلة. والمملوك:العجين الغليظ. .

الخاتمة

بعد تناول موضوع"أسلوب الحقيقة وقيمته في التصوير" والانتهاء ـ بحمد الله ـ من معالجته، نستطيع أن نسجل أهم النتائج التي توصل إليها البحث وهي:

أولاً: أننا اقتصرنا في حديثنا على أسلوب الحقيقة اللغوية فقط،وأسميناه" الحقيقة"على إطلاقه ولم نقيده.باللغوية؛ اتباعاً لمنهج جمهور البلاغيين.

ثانياً: أن أسلوب الحقيقة يعد أحد الأساليب التي يستعين بها المتكلم على إبراز ما في نفسه من مشاعر وأحاسيس.

ثالثاً: أن إهمال البلاغيين لهذا الأسلوب،ليس له ما يبرره.

رابعاً: أن ابن رشيق كان من أوائل العلماء الذين قالوا:"إن المجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة" .

خامساً:إن مقولة: إن المجاز أبلغ دائماً من الحقيقة، ليست مقبولة على إطلاقها، فقد تكون الحقيقة أبلغ منه.

سادساً:أن الحقيقة والمجاز يتجاوران جنباً إلى جنب في أبلغ كلام، وأفصح بيان وهو القرآن الكريم، كما أنهما يتآزران معاً في تصوير الغرض المقصود.

سابعاً:أن الحقيقة هي الأصل في الكلام، والمجاز فرع عنها، ولا يعدل عنها إلا عند الحاجة إلى ذلك، وإذا صح حمل الكلام على الحقيقة والمجاز، فإنه لا يحمل إلا على الحقيقة حينئذ؛ لأنه رجوع إلى الأصل.

ثامناً: أن أسلوب الحقيقة له دوره في التعبير،كما أن لأساليب المجاز

دورها كذلك، ولا يُقال إن أحدهما أبلغ من الآخر؛ حيث إن ذلك يرجع إلى السياق ومقتضيات المقام، فأحياناً يقتضي المقام أسلوب الحقيقة ،وأحياناً يقتضي أسلوب المجاز،وأحياناً يقتضي المزاوجة بينهما .ومن ثم يبقى للحقيقة دورها ومكانتها في البلاغة العربية.

تاسعاً:أن المجاز إذا كان قد حاز على شطر الحسن، فقد حازت الحقيقة على الشطر الآخر منه.

عاشراً:أن النماذج التطبيقية المتنوعة من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، والشعر العربي، أثبتت دور الحقيقة في التصوير، وأنه لا يقل في ذلك عن أسلوب المجاز.

والحمد لله أولا وآخرا،،،،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الباحث د/ أحمد فريد أبو سالم

****

فهرس المصادر والمراجع

على رأسها: القرآن الكريم

١ـ أبو تمام الطائي حياته وحياة شعره / نجيب محمد البهبيتي . ط: دار الثقافة ـ المغرب ط: ١٤٠٢هـ ـ١٩٨٢م.

٢ـ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم.ط:مكتبة دار التراث ـ القاهرة.

٣ـ أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ، تحقيق /أبو فهر محمود محمد شاكر ، نشر دار المدني ـ جـدة ، ط : المدنـي ـ القاهرة ـ ط: الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

٤ـ إعجاز القرآن للباقلاني ،تحقيق/ السيد أحمد صقر، ط: دار المعارف ـالقاهرة ط:١٩٧٥م.

٥ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني . تحقيق: سمير جابر، طبع ونشر: دار الفكر– بيروت .ط:الثانية.

٦ـ الإيضاح مع البغية تحقيق/ عبد المتعال الصعيدي، ط: مكتبة الآداب ـ القاهرة،ط: الرابعة.

٧ـ البرهان في علوم القرآن لمحمد بن عبد الله الزركشي . تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم . نشر دار المعرفة ـ بيروت.ط:١٣٩١هـ.

٨ـ البيان والتبيين للجاحظ. تحقيق / فوزي عطوي .ط: دار صعب – بيروت ط: الأولى :١٩٦٨م.

٩ـ تاج العروس من جواهر القاموس للزَّبيدي ط: طبع ونشر دار الهداية.

١٠ـ تجريد العلامة البناني مع مختصر العلامة/ سعد الدين التفتازاني. ط: محمد على صبيح ـ القاهرة، ط: الثانية:١٣٥٧هـ.

١١ـ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور. ط : دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس ـ ١٩٩٧م.

١٢ـ تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي لمحمد بن عبد الرحيم المباركفوري. ط: دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٣ـ التصوير البياني د. حفني شرف ، ط:مكتبة الشباب ـ القاهرة، ط: الثانية،ط: ١٩٧٢م.

١٤ـ التصوير البياني د. محمد محمد أبو موسى. ط: مكتبة وهبة، ط: الثانية:١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

١٥ـ التصوير الفني لسيد قطب. ط:دار الشروق بيروت. ط: ١٩٨٨م.

١٦ـ تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لمحمد بن محمد العمادي أبو السعود. ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

١٧ـ تفسير آيات الأحكام للشيخ/محمد علي السايس. تحقيق/ناجي إبراهيم سويدان. ط: المكتبة العصرية ـ بيروت ،ط : الأولى:١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

١٨ـ تفسير القاسمي المسمى :محاسن التأويل لجمال الدين القاسمي . تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، ط : دار إحياء الكتب العربية لعيسى الحلبي .

١٩ـ تفسير الكشاف للزمخشري، تحقيق/ عبد الرزاق المهدي. ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت. ط: الثانية: ١٤٢١هـ ٢٠٠١م.

٢٠. دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني. تحقيق/ محمود محمد شاكر، ط: المدني ـ القاهرة، وجدة ـ ط: الثالثة. ط: ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

٢١ـ ديوان البحتري . ط : دار بيروت للطباعة والنشر. بيروت. ط: ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

٢٢ـ ديوان الخنساء . تحقيق/ كرم البستاني ط: دار صادر. بيروت. ط: ١٩٦٣م، وتحقيق د/ إبراهيم عوضين. ط: المكتبة الأزهرية للتراث ـ القاهرة، ط: الأولى: ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٢٣. زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع للشيخ/ أحمد الحملاوي . ط: مصطفى الحلبي ـ القاهرة ، ط: الخامسة ، ط: ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٦م.

٢٤. سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي تحقيق/ عبد المتعال الصعيدي، ط: مكتبة محمد علي صبيح ـ القاهرة، ط: ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٢م.

٢٥ـ سنن الترمذي . تحقيق/ أحمد محمد شاكر وآخرون، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٢٦. شرح التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهري. تحقيق / محمد باسل عيون السود . ط: : دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط: الأولى: ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٢٧. شرح جمل الزجاجي لابن عصفور. تحقيق د/ صاحب أبو جناح، ط: دار الكتب للطباعة والنشر ـ جامعة الموصل ـ العراق.

٢٨. شرح السعد على التلخيص (ضمن شروح التلخيص) . ط: دار البيان العربي - بيروت . ط: الرابعة: ١٤١٢هـ -١٩٩٢م.

٢٩. شرح كافية ابن الحاجب للرضي. تحقيق د/ إميل بديع يعقوب. ط: : دار الكتب العلمية - بيروت،ط: الأولى: ١٤١٩هـ -١٩٩٨م.

٣٠. شرح الكافية الشافية لابن مالك. تحقيق د/ عبد المنعم هريدي، ط: دار المأمون للتراث - دمشق. ط: الأولى: ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٣١. شروح التلخيص. ط: دار البيان العربي - بيروت. ط: الرابعة: ١٤١٢هـ -١٩٩٢م.

٣٢. الصاحبي لابن فارس . ط: دار إحياء الكتب العربية لعيسى الحلبي - القاهرة ط: ١٩٧٨م.

٣٣ـ صحيح البخاري. تحقيق د/ مصطفى ديب البغا . ط: دار ابن كثير - اليمامة - بيروت. ط: الثالثة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٣٤. صحيح مسلم . تحقيق/محمد فؤاد عبد الباقي. ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٣٥ـ الصناعتين لأبي هلال العسكري تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، ط: عيسى الحلبي، ط: ١٩٧١م.

٣٦. الصورة الأدبية في القرآن الكريم د/ صلاح الدين عبد التواب . ط: مكتبة لبنان ناشرون،ط: الأولى: ١٩٩٥م.

٣٧ـ الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني منهجا وتطبيقا د/ أحمد علي دهمان. ط:مكتبة الأسد - سورية،ط:الثانية: ٢٠٠٠م.

٣٨ـ الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي د/ جابر أحمد عصفور. ط:دار المعارف ، ط: ١٩٨٠م.

٣٩. الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف د/ أحمد زكريا ياسوف .ط: دار المكتبي - سورية،ط: الثانية:١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٤٠. الصورة في شعر بشار بن برد د/ عبد الفتاح صالح نافع . ط: دار الفكر - عمان - ط:١٩٨٣م.

٤١. الصورة في الشعر العربي د/ علي البطل .ط: دار الأندلس - بيروت، ط: الأولى:١٩٨٠م.

٤٢ . الصورة الفنية في الشعر العربي مثال ونقد/ إبراهيم بن عبد الرحمن الغنيم .ط: الشركة العربية للنشر والتوزيع - القاهرة ط:١٤١٥هـ - ١٩٩٦م.

٤٣. الطراز للإمام العلوي ،تحقيق/ محمد عبد السلام شاهين.ط: دار الكتب العلمية - بيروت،ط: الأولى: ١٤١٥هـ -١٩٩٥م.

٤٤. عروس الأفراح (ضمن شروح التلخيص). ط: دار البيان العربي - بيروت.ط: الرابعة:١٤١٢هـ -١٩٩٢م

٤٥. علم البيان د/ بدوي طبانة ط: دار الثقافة - بيروت.

٤٦. العمدة لابن رشيق. تحقيق د/ النبوي عبد الواحد شعلان ط: الأولى: ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٤٧. فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني.ط: دار المعرفة - بيروت.ط: ١٣٧٩هـ.

٤٨. فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور د/رجاء عيد .ط: منشأة المعارف - مصر. ط: ١٩٧٩م.

٤٩. الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان لابن القيم الجوزية. تحقيق/ جماعة من العلماء ، ط: دار الكتب العلمية - بيروت،ط: الأولى: ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٥٠. فيض القدير لعبد الرءوف المناوي،تحقيق/ماجد الحموي.ط: المكتبة التجارية - القاهرة،ط: الأولى:١٣٥٦هـ.

٥١. القرآن والصورة البيانية د/ عبد القادر حسين،ط: دار المنار- القاهرة، ط: الأولى: ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

٥٢. قصائد ومقطعات لأبي الحسن حازم القرطاجني .تحقيق د/ محمد الحبيب ابن الخوجة، ط: الدار التونسية للنشر - تونس. ط: ١٩٧٢.

٥٣. الكامل للإمام أبي العباس المبرد.تحقيق د/محمد أحمد الدالي ،ط: مؤسسة الرسالة - بيروت. ط :الثالثة:١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٥٤. الكتاب لسيبويه، تحقيق الشيخ/ عبد السلام هارون. ط: دار الجيل - بيروت. ط: الأولى. بدون تاريخ.

٥٥. لسان العرب ط:دار صادر - بيروت.ط: الأولى:١٤٢٣هـ -٢٠٠٢م.

٥٦. المثل السائر لابن الأثير. تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد، طبع ونشر: المكتبة العصرية - بيروت ، ط: ١٩٩٥م.

٥٧. المجاز في البلاغة العربية د/ مهدي صالح السامرائي.ط:دار الدعوة - سورية ،ط: الأولى: ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٥٨. المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع د/ عبد العظيم المطعني ، ط: مكتبة وهبة . القاهرة . ط:الأولى. ط:١٤٠٦هـ . ١٩٨٥م.

٥٩ـ محاضرات في علم البيان د/ حسن طبل ،ط: مكتبة الزهراء،ط: ١٩٨٤م.

٦٠. مشاهد القيامة في القرآن لسيد قطب .ط:دار الشروق . بيروت.

٦١. المطول لسعد الدين التفتازاني ، ط :مطبعة أحمد كامل،ط: ١٣٣٠هـ.

٦٢. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها د/ أحمد مطلوب ط:مكتبة لبنان ناشرون . بيروت،ط: الثانية ط:١٩٩٦م.

٦٣. مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي . تحقيق/ نعيم زرزور، ط: دار الكتب العلمية . بيروت. ط : الأولى :١٤٠٣هـ . ١٩٨٣م.

٦٤ـ مقاييس اللغة لابن فارس تحقيق/ عبد السلام هارون، طبع ونشر: اتحاد الكتاب العرب،ط: ١٤٢٣هـ .٢٠٠٢م.

٦٥. المنهاج الواضح لحامد عوني ط: مكتبة الجامعة الأزهرية ط: ١٩٧٢م.

٦٦. الموازنة الآمدي. تحقيق/ السيد أحمد صقر، ط: دار المعارف.ط: ١٣٩٢هـ . ١٩٧٢م .

٦٧ـ مواهب الفتاح لابن يعقوب (ضمن شروح التلخيص) . ط: دار البيان العربي . بيروت.ط: الرابعة:١٤١٢هـ .١٩٩٢م

٦٨. النقد الأدبي الحديث د/ محمد غنيمي هلال .ط: نهضة مصر،ط: ٢٠٠١م.

٦٩ـ النكت في إعجاز القرآن للرماني (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق د/ محمد خلف الله، د/ محمد زغلول سلام ،ط: دار المعارف ـ القاهرة ـ .

٧٠ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني ،تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي البجاوي، ط: عيسى الحلبي ـ القاهرة. ط: ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.

****

فهرس الموضوعات

* * * * *